خلف كواليس الحياة

رواية

طـــه لطفـــي

اسم الكتاب: خلف كواليس الحياة

اسم الكاتب: طـــه لطفـــــــــي

تدقيق لغوي: سلمى النجار

تصميم الغلاف: محمـد إبراهيم

الإخراج الفنيّ: جمال عبد الرحيم

الطبعة / الأولـــــــى – يناير ٢٠٢٠

رقم الإيداع: **25447/ 2019**

Arabiclibrary2017@gmail.com

Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر،

شكر خاص

إلى زوجتي العزيزة الغالية التي شجعتني ودعمتني في كل حرف كتبته.

إلى أخي العزيز المبدع محمد لطفي الذي لم يبخل عليَّ بالنصح والتوجيه، وقد أسهمت مذكراته ومقالاته الرائعة كثيرًا في تحسين هذه الرواية وإخراجها بهذا الشكل الذي عليه.

إلى كل الأصدقاء المخلصين الذين لم يبخلوا عليَّ بالوقت والجهد، وكانت آراؤهم القيمة المحترمة دعمًا لي في كتابتي.

كان الصمت والهدوء يخيم على أجواء الحجرة، فكان (كامل) ممددًا جسده على الفراش شارد الذهن بينما كانت زوجته (فريدة) بجواره وقد أرهقت عيناها من كثرة البكاء، فقام (كامل) فجأة ليغادر الحجرة متجهًا إلى حجرة أخرى من المنزل بابها محكم الإغلاق، وقف أمامها برهة يفكر قبل أن يفتح بابها في حذر ثم يدلف بداخلها بعد أن ضغط على زر الإنارة، وقف هنية يجول ببصره في أرجاءً الغرفة يتفقد محتواها، فكانت الحجرة بها سرير وبجانبه الأيمن مقعد يعلوه نافذة كبيرة مطلة على الشارع العمومي وبجانبه مكتب عليه جهاز كمبيوتر ومجموعة من الأوراق، وكان عند الحائط أيسر فتحة الباب دولاب ذو درفتين وشماعة معلق عليها بعض الملابس.

اتجه (كامل) إلى المكتب وأخذ يتفقد الأوراق الموضوعة عليه إلى أن أحس بأن هناك من ينظر إليه، جرت قشعريرة خفيفة في جسده فأغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يلتفت ليجدها واقفة وراءه عند تلك الزاوية!

ابتلع ريقه وحاول أن يبدو متماسكًا وقال لها سائلًا:

- أين (يحي)؟

فظلت ترمقه دون أن تجيبه، فاستطرد قائلًا:

- أخبريني أين ذهب؟

فردت عليه قائلة:

- لا يمكنني إخبارك بهذا الآن.
- ولم؟!
- لأنه لا يمكنني ذلك.

وبعد صمت دام للحظات ظلا يرمقان فيه بعضهما استطردت قائله:

- هناك في درج المكتب ستجد شيئًا يخصه خذه وغادر الحجرة.

فتح (كامل) درج المكتب فوجد كشكول كبير تفقد صفحاته الأولى فكان كمذكرات بخط (يحي)، التفت ثانية فوجدها قد رحلت فأسرع بالمغادرة وعاود إحكام غلق الباب من جديد، وفي هذه الأثناء خرجت (فريدة) من حجرتها عندما أحست بشيء مريب يحدث بالخارج لتجده وفي يده ذلك الكشكول، فتساءلت في دهشة وقد بدا عليها القلق:

- (كامل).. أين كنت؟!.

فلم يجب على سؤالها بينما قال بلهجة آمرة:

- سأمكث في حجرة المكتب لبعض الوقت، لا أريد إزعاج من أحد.

ثم توجه إلى حجرة مكتبه في الطابق السفلي وأغلق الباب عليه.

***

الفصل الأول
خروج من الجسد

- صباح الخير يا عم (جابر).
- صباح الخير يا بني، كيف حال أبيك؟ لم أره منذ يومين!
- إنه بخير؛ ولكنه يشعر ببعض التعب والإرهاق.
- أخبره إذًا بأني سآتي لزيارته اليوم.
- على الرحب والسعة يا عم (جابر) سوف أخبره.
- (يحي).. (يحي).. انتظر.
- (عزت)!..
- إلى أين في هذا الوقت المبكر يا (يحي)؟!
- رغبت في استنشاق بعض الهواء النظيف.. هلا رافقتني؟
- نعم.. ولكن ليس لوقت طويل؛ فأنا لم أنم منذ البارحة.

- ليس من المعتاد رؤيتك في هذا التوقيت في وضح النهار يا (عزت)!.. كنت أظنك كائن ليلي لا ينشط ولا يُرى إلاَّ في الظلام.
- هههه. دعك من هذا يا (يحي).. لم لم تأتِ في موعدك هذا المساء؟.. حتى أنى لم أسمع تلك الأصوات الليلة!.. لقد قلقت عليك كثيرًا.. هل هناك خطب ما؟
- لا يا (عزت).. كنت فقط مشغولًا بعض الشيء.
- وهل ستأتي هذا المساء، أم ما زلت مشغولًا؟
- بل سآتي في الموعد إن شاء الله.

مضى يحي وعزت في طريقهما قاصدين المنطقة الزراعية عند أطراف المدينة، وفجأة توقف يحي أمام إحدى البنايات، وأطال النظر إليها.

- ما بك يا (يحي)؟.. لما توقفت هنا؟!
- هل ترى يا (عزت) تلك البناية هناك؟.. هذه هي مدرستي الإعدادية.. لقد أمضيت فيها ثلاثة أعوام.. لا أذكر منها أي شيء!.. كيف كانوا؟.. من صاحبت؟.. ومن خاصمت؟.. وأين ذهب صديقي (بكر)؟.. كيف اختفى هذا الكئيب؟
- لا أفهم؟!.. وكيف يحدث هذا؟.. ومن هو بكر؟

- في الواقع أنا لا أتذكر أي شيء عن هذه المرحلة وكأني لم أعيشها من الأساس!.. أما (بكر) فهو صديق طفولتي، كان يرافقني كظلي حتى أني حسبت أنه كالقدر لن يفارقني يومًا ما!.. يقولون أنه كان برفقتي قبل اختفائه!.. ولكني لا أتذكر أي شيء يا (عزت).. لا أتذكر أي شيء!

التزما الصمت لفترة قليلة قبل أن يستطرد (يحيى) قائلًا:

- هل ما زلت تريد سماع حكايتي يا (عزت)؟
- بالطبع أرغب في ذلك وبشدة فالفضول يكاد يقتلني.
- لك ذلك ولكن بشرطين.. الأول.. أن هذا سرًا بيني وبينك لا يعرف به أحد.. أما الثاني.. فكونك شخص يجيد الكتابة ولك العديد من المقالات المنشورة، ولك أسلوبك المميز على حد قولك.. فأريد منك تدوين كل ما سوف أحكيه لك بأسلوبك هذا على أن تعطيه لي عندما ننتهي.
- لك هذا.. ولكن لما عدلت فجأة عن موقفك حيال التحدث عن هذا الأمر؟!
- لا أعلم!.. ربما هي رغبة في التحدث لأروح بها عن نفسي وأخرج ما في صدري، وفي هذه الحالة أرى أنك الشخص المناسب لهذا

كونك غريب عن مدينتنا، وكونك أيضًا شخص غريب الأطوار لا أرى لك صاحب أو رفيق هنا غيرى!.. أو ربما أخشى أن أصحوا يومًا ما أجد نفسي قد نسيت كل شيء بل ونسيت حتى من أكون، حينها ربما يساعدني ما ستدونه عني في تذكر كل شيء.

- إذًا أراك ليلًا في موعدنا المعتاد، فعليَّ الذهاب الآن.
- وهو كذلك، إلى اللقاء يا (عزت).

مضى عزت في طريقه عائدًا إلى المنزل بينما ظل (يحي) واقفًا مكانه يدقق النظر في تفاصيل تلك المدرسة، وكأنه يحاول استرجاع أي شيء من هذا الماضي المجهول إلى أن التفت إليه (عزت) بعد ابتعاده لبضعة أمتار قائلًا:

- (يحي).. لا تنسى أنك وعدتني.

رد عليه (يحي) بابتسامة خفيفة ثم أدار ظهره ليمضي هو الآخر في طريقه.

وفى المساء وعندما دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل استيقظ (يحي) من نومه فزعًا على صوت الصراخ والبكاء والعويل الذي شق سكون الليل وبدد هدوئه، كانت تجلس هناك عند أحد الأركان من

الغرفة تحتضن ابنتيها وقد استرسلن في البكاء والنحيب والصراخ دون توقف، انتفض (يحي) من مكانه وأخذ يبدل ملابسه ثم غادر الغرفة إلى خارج المنزل دون النظر إليهن ودون أن يعيرهن أي اهتمام قاصدًا تلك المقهى التي تبعد عن منزله بضعة أمتار فهي المقهى الوحيدة في المدينة التي تظل مفتوحة على مدار الأربع وعشرين ساعة، وهناك كان (عزت) جالسًا في انتظاره على نفس الطاولة التي اعتادا الجلوس عليها كل ليلة.

- تأخرت في المجيء الليلة يا (يحي)، فمن عادتك القدوم قبل صدور تلك الأصوات وليس بعدها!
- نعم. لقد نسيت ضبط منبه الساعة.

سكت عزت برهة ثم استطرد قائلًا:

- لا يهم فأنت وعدتني بأن تقص عليَّ حكايتك كاملة. أليس هذا صحيح؟
- بلى. ولكن دعني ألتقط أنفاسي أولًا.

وهنا توجه إليهما عامل المقهى قائلًا:

- كيف أخدمك يا أستاذ (يحي)؟ هل أحضر لك مشروبك المعتاد أم ترغب في استبداله بمشروب آخر هذه الليلة؟

- لا. أحضر لي نفس المشروب. (عزت) هل ترغب في مشروب آخر.
- أنا. لا. فالسحلب يروق لي كثيرًا.
- إذًا احضر لنا كوبين من السحلب، ولا داعي لتكرار نفس السؤال كل ليلة، فقط احضر لنا مشروبنا المعتاد فور وصولي ما لم أبادر بإخبارك بغير ذلك.

ذهب عامل المقهى لبضع دقائق ثم عاد ليضع كوبين من السحلب الدافئ على الطاولة، وما أن انصرف حتى نظر (عزت) إلى (يحي) نظرة قد فهم الأخير مغزاها فتحدث قائلًا:

- حسنًا يا (عزت). قبل أن أبدأ في الحديث عليك أن تلتزم بهذا الشرط.
- ما هو؟
- ألاَّ تقاطعني لتستفسر عن أي شيء غير مفهوم بالنسبة لك، فبعض الأحداث ستفسر نفسها، والبعض منها حتى أنا لا أملك له تفسيرًا إلى الآن.
- لك ذلك. فلتبدأ رجاءً.

أغمض (يحي) عيناه برهة ثم أخذ نفسا عميقا قبل أن يفتح عيناه من جديد شارعًا في قص الحكاية من البداية.

بدأ الأمر معي في سن مبكر؛ كنت في سن الرابعة تقريبًا، حين شاهدت نفسي أرتقي وأتحرر من جسدي لأول مرة ما بين اليقظة والنوم، كان أمرًا غريبًا ومريبًا حينها هرعت إلى أمي فزعًا فأخذت تهدئ من روعي، وأخبرتني أن هذا يسمى حلم، وأن الجميع يحلمون، فلا داعي للخوف والقلق، وعلمتني بعض الكلمات جعلتني أرددها وراءها، وقالت إنها ستحفظني وتزيل عني هذا الخوف! لكن في الحقيقة تلك الكلمات لم تغنِ عني شيئًا!

لم أكن أعلم كيف يحدث هذا؟ ولماذا يحدث؟ ومتى ينتهي؟ فقد اعتدت على حدوثه في كل ليلة تقريبًا، حيث أنفصل عن جسدي تاركًا إياه ممددًا بلا حراك، ثم أنطلق بعيدًا عنه سابحًا في اللازمان واللامكان واللامنطق، فأرى الكثير من الأحداث والأهوال، ثم أعود أدراجي إلى هذا الجسد من جديد! إنها تلك اللعنة التي فتحت عليَّ أبواب الجحيم على مصرعيها، تلك اللعنة التي دمرت حياتي قبل حتى أن تبدأ.

وفى يوم أتى عم (جابر) لزيارة أبي وكانا جالسين في حجرة الضيوف، وكنت حينها جالسًا بجوار أبي فأنا أحب مجالسة عم (جابر)

كثيرًا لأنه رجل طيب القلب ولأنه أيضًا يحبني وكان يظهر محبته لي كلما رآني، وفي أثناء حديثهما قال أبي لعم (جابر) متسائلًا:

- ماذا عن (شكري) ؟ ألم يجد ابنته بعد؟
- لا لم يجدوها.
- لقد مضى على اختفائها ثلاثة أيام! هذا الأمر لم يحدث في بلدتنا من قبل.
- لا أعرف يا (كامل) (فشكري) الآن في حالة يرثى لها، رأيته منذ قليل قبل قدومي إليك هائمًا يكلم نفسه كالمجذوب.
- كان الله في عونه وردَّ عليه ابنته سالمة فإنه بلاء شديد بلا شك، ما كان اسمها؟
- اسمها (إيمان).

انتبهت حين سمعت اسم (إيمان) من عم (جابر) فقلت على الفور:

- أنا أعرف مكانها فقد رأيتها.

هنا اعتدل عم (جابر) في جلسته وقال لي متسائلًا:

- أين رأيتها يا (يحي)؟
- رأيتها في ذلك المنزل القديم في الحي تجلس على جوال باكية! حاولت التحدث إليها ومعرفة ما بها لكنها لم تلتفت إليَّ ولم تجيبني!

تغير وجه عم (جابر) وأسترسل في سؤاله قائلًا:

- ومتى رأيتها يا (يحي)؟
- رأيتها ثلاث مرات متتالية، ففي كل ليلة أراها لا تبرح هذا المكان هناك!

هنا قال أبي في حنق:

- كف عن هذا يا (جابر) إنه مجرد طفل صغير، والأطفال دائمًا يطلقون العنان لمخيلاتهم ويتحدثون عنها كأنها الحقيقة.
- لقد أخبرتك بحال الرجل يا (كامل)، وأظن أنه من واجبنا عدم إهمال قول كهذا لمجرد أنه من طفل! دعنا نتحرى من الأمر رجاءً فهذا لن يكلفنا شيء.

فأومأ أبي برأسه موافقًا، فقال لي عم (جابر):

- والآن يا (يحي) هل يمكنك أن تريني أنا وأباك هذا المكان الذي رأيتها به؟
- بالطبع يا عم (جابر) فإنه ليس بعيد عن هنا.

صحبت عم (جابر) وأبي إلى ذلك المنزل القديم والذي لم يكن يبعد عن منزلنا كثيرًا؛ فهو في نفس الحي الذي نقطن فيه، كان المنزل له بوابة حديدية قديمة جدًا نصفها السفلي عبارة عن صاج مصمت لا يظهر ما

خلفه، أما الجزء العلوي فهو عبارة عن أسياخ من الحديد مشغولة يتخللها الكثير من الفراغات بينها تسمح برؤية ما خلفها، وكانت إحدى درفتيه مفصولة عن الحائط المثبتة به، ولا يمنع سقوطها سوى تلك السلسلة الغليظة المثبتة بالدرفة الأخرى والتي أُحكم إغلاق الباب بها سابقًا، فكانت الدرفة مائلة وتاركة بينها وبين الحائط فتحة كبيرة تسمح بولوج القطط والكلاب الضالة إلى داخل المنزل وتسمح أيضًا بمرور شخص بالغ من خلالها، وحين وصلنا أمام المنزل نظرت من خلال تلك الفراغات بين أسياخ الحديد المشغولة حتى أتمكن من تحديد المكان الذي رأيت فيه (إيمان)، ولكن بمجرد أن وقع بصري داخل المنزل فزعت وهرعت إلى أبي وخبأت وجهي في جلبابه مرتعدًا، فوضع أبي يده على رأسي وضمني إليه قائلًا:

- لا تخف يا (يحي) فأنا هنا معك!
- دعنا نعود إلى المنزل يا أبي فإنها تخيفني.

فقال لي عم (جابر):

- هدئ من روعك يا (يحي) ولا تخف، أخبرني أولًا أين رأيتها ثم نعود أدراجنا.

بدون أن أرفع وجهي عن جلباب أبي أشرت إلى ذلك الجوال الملقى هناك قائلًا بصوت مرتعد:

- إنها تجلس هناك.

وعلى الفور قام عم (جابر) بالولوج داخل المنزل من خلال تلك الفتحة متجها للمكان الذي أشرت إليه ليجد ذلك الجوال حيث شرع في تفقده وفتحه بحذر شديد قبل أن يصيح فزعًا مهللًا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. لا حول ولا قوة إلا بالله.
- ماذا هناك يا (جابر)؟!
- إنها الفتاة يا (كامل). أحدهم قتلها ووضعها داخل الجوال.
- لا حول ولا قوة إلا بالله. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

تجمع المارة وأهل الحي على صياح عم (جابر)، بينما أحسست بيد أبي تعصرني وتضمني إليه بشدة، وبمجرد أن خرج عم (جابر) من المنزل وسط زحام الناس وتهليلهم متأثرين بما أوقعته تلك الفاجعة في نفوسهم، توجه إليه أبي على الفور وقال له محذرًا:

- اسمع يا (جابر) لا تخبر أحدًا بما قاله (يحي) وليكن هذا سرًا بيننا.

- كيف هذا يا (كامل)؟ وبماذا سنخبر الناس عن كيفية كشفنا للأمر؟! الأمر ليس هينا إنها جريمة قتل يا (كامل) وسيكون هناك تحقيق وسؤال!
- نقول أننا شممنا رائحة ميتة وهي ما قادتنا إليها، نقول أي شيء يا (جابر) المهم لا تقحم ابني في ذلك، ثم إن كلامه لن يعتد به في التحقيق الرسمي وربما يزيد الأمر سوءً ويثير الشكوك حولنا!
- ليكن ذلك يا (كامل). ليكن ذلك.

انحنى نحوي أبي وهو يعتصر وجهي بين راحتيه قائلًا:

- الآن يا (يحي) ستعود إلى المنزل ولن تخرج منه، ولن تُحدِّث أحدًا بالأمر حتى أعود إليك
- ألن تعود معي يا أبي؟!
- لا. فيجب أن أكون هنا مع عمك (جابر) ارجع أنت وكما أخبرتك لا تتحدث مع أحد بهذا الأمر، لا تتحدث فيه حتى مع أمك وإخوتك فهمت.
- نعم فهمت يا أبي.

وحين عاد أبي إلى المنزل كانت أمي في استقباله وسألته باكية:

- هل صحيح ما سمعته بأمر الفتاة يا (كامل)؟ وكيف حال أبيها وأمها؟

لم يجب أبي على سؤالها، وقال لها سائلًا:

- أين يحي الآن؟
- لقد عاد من الخارج يرتعد من شدة الخوف ولم يتركني حتى نام، ما الأمر يا (كامل) ؟!

خرجت من الغرفة حين سمعت صوت أبي، فتوجه نحوي فور رؤيتي وحملني عائدًا إلى داخل الغرفة، وتبعته أمي دون أن تتساءل ما الأمر فقد تغير لون وجهها وكأنها أحست بريبة ألجمتها واكتفت بأن تجول ببصرها بيني وبين أبي! أجلسني أبي على السرير متسائلًا:

- أخبرني يا (يحي). حين كنا أمام المنزل هناك، ما الذي رأيته أفزعك لهذا الحد؟!
- رأيتها. كانت جالسة في مكانها تبكي على الجوال كما كنت أراها في كل ليلة، ولكن وجهها بات مختلفًا عما كنت أراها عليه من قبل، لقد كان منتفخًا والدماء تسيل من رقبتها! لقد أخافتني كثيرًا يا أبي.

وفي أثناء حديثي كانت أمي تنظر إليَّ في لهفة وهي تضع يدها على صدرها تعتصر الجلباب الذي ترتديه وكأنها تعتصر بذلك قلبها! وحين انتهيت من حديثي قال أبي:

- أريدك أن تنسى هذا الأمر يا (يحي) وألاَّ تخبر به أحدًا أيًّا كان كما قلت لك من قبل، والآن اذهب إلى حجرتك لتنام بجوار أخيك.

وحين خرجت من الغرفة وأغلقت الباب سمعت أمي تتحدث لأبي باكية:

- لقد قلت لك يا (كامل) ولم تصدقني! أخبرتك بأمر ذلك الرجل الأشيب الذي رأيته أكثر من مرة يتفقده حين كان رضيعًا، أخبرتك بأنه كان يلجم لساني وجسمي حين رؤيته فأعجز حينها عن الحركة والصراخ، أخبرتك يا (كامل) مرارا ولم تصدقني، والآن ماذا علينا أن نفعل؟ فالأمر يزداد سوءً كلما تقدم (يحي) في السن، أنا أخاف على ابني كثيرًا يا (كامل).
- هدئي من روعك قليلًا يا (فريدة) وأخفضي صوتك، فليس لنا حيال هذا الأمر شيء إلاَّ أن ندعوا الله أن يحفظ ابننا، فالله خير حافظ.

ظل الأمر على هذا الحال لعدة أعوام لم يتوقف فيها ليوم واحد، وحين أيقنت أن الأمر لا رادع له وليس باستطاعة أحد أن يوقفه، توقفت عن الشكوى وعن الخوف وأسلمت نفسي لهذا الواقع المرير طوعًا بعدما أُرهقت ولم أجد جدوى من الفزع والمقاومة، ومنذ ذلك الحين لم أعد بذلك الطفل الصغير الذي يحتمي في أحضان أبويه حين

يشعر بالخوف والخطر، بل كانت العزلة هي ملجأي وملازي، وأصبح لي عالمي الخاص الذي لا يعلم به أحد من حولي.

وقد تأقلمت مع هذا الوضع وبات محتملًا بالنسبة لي، فالأمر حينها لم يتعدَ كونه مجرد رؤى لأحداث وأشخاص لا يشكلون لي تهديدًا على أي حال ولا يلاحقني أحدهم، إلى أن ظهرت تلك الكيانات ليتغير معها كل شيء.

وكنت في الصف الخامس الابتدائي حين بدأت ظهور تلك الكيانات ومطاردتها لي في أثناء الارتقاء والانفصال عن جسدي كل ليلة، حينها بدأت في كتابة وتدوين أول حلم أو رؤيا في كراستي الخاصة، وظلت تتكرر رؤيتي لها فيما بعد من حين لآخر! حتى أنني ما زلت أراها ليومنا هذا دون أن أعرف مفادها!

أرى فيها رجل في العقد الخامس من عمره تقريبًا، رث الثياب، طليق اللحية. حاله كحال أي مجذوب نراه هائمًا في الطرقات، كانت عيناه لا تكف عن إذراف الدموع وكأنها تستمد مائها من بحر لا ينضب!

والغريب في الأمر هو ذلك الشعور الذي ينتابني حين تلتقي عيني بعينه، أشعر بأن شيئًا ما يربطني بهذا الرجل بقوة، كما أرى من نظرة عينه أنه يبادلني نفس الشعور! وكأنه يريد أن يصرخ، ويستغيث، يريد إخباري بشيء ما لكن هناك ما يلجم لسانه ويمنعه من التحدث والصراخ!

- أظنني قد اكتفيت بهذا القدر، على أن أكمل حديثي معك في اللقاء القادم.
- ولما العجلة؟ ما زال أمامنا متسع من الوقت!
- لا. عليَّ الذهاب الآن، أرغب في الحصول على قسطًا من الراحة خلال هذه الساعات المتبقية قبل ذهابي للعمل.
- إذًا سأنتظرك غدًا في نفس الموعد، طاب يومك يا (يحي).

***

عاد (يحي) إلى منزله واتجه مباشرةً إلى الدرج قاصدًا غرفته في الطابق الثاني، والتي كان يعمها الهدوء التام وكأن شيئًا لم يكن! وبمجرد ولوجه داخل الغرفة طرح جسده على الفراش دون أن يبدل ملابسه، ودون أن ينتبه لضبط المنبه للمرة الثانية، فأغمض عيناه ليغط في نومٍ عميق، وبعد مُضي ساعتين ونصف تقريبًا استيقظ على صوت أبيه الذي كان ينادي عليه من خارج الغرفة محاولًا إيقاظه أو تفقد حاله بعدما لاحظ عدم خروجه إلى العمل في توقيت خروجه يوميًّا، وما أن وقعت عيناه على الساعة المعلقة على الحائط حتى انتفض من مكانه قائلًا:

- اللعنة. ليس اليوم، لقد نسيت أمر ذلك المنبه اللعين.

وأخذ يبدل ملابسه في عجلة، وحين هم بارتداء الحذاء لاحظ حالته الرثة، فهو لم يعتنِ به منذ عدة أيام مضت، أما اليوم فعنده موعد مع عميل مهم والمظهر الخارجي ضروري في مثل هذه المقابلات، اتجه إلى المكتب حيث اعتاد وضع ملمع الحذاء لكنه لم يجده! فهم بفتح أدراج المكتب بعصبية باحثًا عنه ولكن دون جدوى، حتى سمع صوتها قادمًا من خلفه متسائلة:

- هل تبحث عن شيء ما يا حبيبي؟

أغمض (يحي) عيناه متنهدًا قبل أن يلتفت ليجدها تقف من خلفه عند الزاوية مبتسمة ومبتهجة كعادتها، فأجابها قائلًا:

- أبحث عن ملمع الحذاء، لقد وضعته هنا.
- يمكنك البحث عنه في مكان آخر! فربما وضعته هنا أو هناك ونسيت.

فضرب بيده على سطح المكتب الخشبي قائلًا:

- «قلت لكي لقد وضعته هنا. هنا.

وفي هذه الأثناء رمى أحدهم بملمع الحذاء دافعًا إياه من تحت السرير، فقال (يحي) ضاغطًا على أسنانه من شدة الغيظ:

- إنه أنتما إذًا. ألم أنهاكما من قبل عن التسلل تحت السرير؟!
- هدئ من روعك يا حبيبي إنهما مجرد طفلتين!
- طفلتين؟! لقد دمرتن حياتي وتحولت بسببكن إلى جحيم، ألا تستطيعون فعل شيء واحد لأجلي؟!

ثم سكت (يحي) برهة كان يكتم فيها غيظه قبل أن يمسك بملمع الحذاء ويشرع في تلميعه على عجلة، ثم أخذ بارتدائه ليغادر الغرفة ويغلق بابها خلفه بعصبية دون التحدث إلى الفتاتين اللتين خرجتا بدورهما متذمرتين من تحت السرير ليرتمين في حضن أمهما الواقفة عند تلك الزاوية من الغرفة.

ثم خرج من المنزل مسرعًا في محاولة بائسة لإدراك الوقت. وكم هو محظوظ حينها أن يجد تلك الحافلة بهذه السرعة. كانت الحافلة مزدحمة جدًا؛ فوجد لنفسه مكانًا مناسبًا للوقوف وسط هذا الزحام وكل هذه الأجسام المتلاصقة بعضها ببعض، أمسك بمسند المقعد الذي أمامه، وأطلق نظره خلال النافذة المواجهة له ليشغل عيناه باللا شيء، بعد أن خلا رأسه من كل شيء.

وبينما هو في تلك الحالة انتبه فجأة إلى أصابع متلصصة تحاول التسلل إلى جيب سرواله الأيسر. فانتفض وكردة فعل طبيعية حرك يده اليسرى بسرعة ليغطي بها جيبه، فتفاجأت الأصابع من انتباهه وردة فعله فانسحبت بسرعة البرق، فأدار رأسه بحركة تبدو عفوية إلى يساره؛ فإذا به شاب في العقد الثالث، نحيف الجسد، أسمر اللون، مكتوب على

وجهه كلمة (نشال)، يقف مرخيا يمناه بجواره بصلابة، شاخصًا ببصره خلال النافذة مظهرًا عدم الانتباه. فلمعت عينا (يحي) وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الشيطانية الخبيثة، ورفع يده اليسرى ليضعها على مسند المقعد الذي أمامه مرة أخرى، كاشفًا جانبه الأيسر تمامًا أمام اللص داعيه للمبارزة. فقد مضت فترة طويلة قد حرم فيها من لذة المغامرة والتحدي؛ وتذوق طعم النصر. وعلى أي حال فليس لديه ما يخسره ولم يكن يراهن على نفيس؛ فلم يكن في جيب سرواله الأيسر سوى نصف جنيه متبقى من أجرة الحافلة السابقة.

ولم يخيب اللص ظنه حيث عاود المحاولة، فعاود (يحي) مفاجأته بإنزال يده سريعًا دون النظر إليه. واستمر الوضع بينهما بين كر وفر، بينما كل منهما مثبت عيناه على النافذة التي أمامه مدعيا عدم الانتباه؛ وفى قرارة نفسه يعلم يقينا أن الطرف الثاني قد فضح أمره، فقد تحولت المواجه بينهما إلى تحدى واضح وعلى (المكشوف)، فأخذ كل منهما الأمر على عاتقه، واحتمى بينهما الوطيس بعد أن تحول الوضع إلى أمر شخصي في نفس كل منهما.

كانت المحطة المفروض أن ينزل بها (يحي) قد اقتربت، ولكنه عقد العزم ألاَّ يترك الحافلة، وأن يظل مع اللص حتى النهاية، وليذهب العمل بل ولتذهب الدنيا بأسرها إلى الجحيم.

ولكن قبل الوصول إلى محطته بمحطة واحدة، رفع اللص الراية البيضاء معلنا هزيمته، وانسحب نازلًا من الحافلة! فضجت حينها أعماق (يحي) بصيحات النصر، والتقت عينه بعين اللص الذي التفت ليرمقه بنظرة نارية مشبعة بكل معاني وإشارات التحدي فور نزوله على رصيف المحطة إلى أن تحركت الحافلة. وعندما شرفت محطته على الوصول أخذ يشق الزحام، وبعد معركة خاضها للوصول إلى باب الحافلة ليخرج من صندوق الدنيا هذا بسلام تملؤه نشوة النصر، أخذ يهندم ملابسه، ثم وضع يده في جيبه الأيسر. قبل أن يقف متسمرًا في مكانه لبعض الوقت، ينظر خلفه في دهشة وكأنه يبحث عن شخص ما! لقد فعلها اللص اللعين! لقد أخذ الـ(نصف جنيه) فتبدلت حلاوة النصر إلى مرارة الهزيمة، وظل على حاله لبعض الوقت إلى أن تخلص من حالة التجمد والدهشة تلك، ثم مضى في طريقه.

وفي المساء قبل الثانية من منتصف الليل بقليل كان يجلس (يحي) في المقهى كعادته على تلك الطاولة، ويجلس أمامه (عزت) الذي علا صوت ضحكه قائلًا:

- وماذا كنت تنتظر يا (يحي) غير هذه النتيجة؟! هون على نفسك يا صديقي فقد كنت تقارع الرجل في عقر داره وفى مجال تخصصه، فهذا كان لصًا والسرقة هي مهنته ومصدر رزقه!
- دعك من هذا الأمر الآن ودعني أبدأ حديثي فليس لدينا وقت نضيعه.
- نعم فلتبدأ أرجوك فقد أثرتني ليلة البارحة وبت أطوق شوقًا لسماع المزيد.

***

(القاهرة) إنها مدرستي الابتدائية، مدرسة الفصل الواحد، كما كانوا يطلقون عليها، وهذا لأن كل صف دراسي بها عبارة عن فصل واحد، فهي مدرسة بسيطة جدًا وعتيقة جدًا. فهي عبارة عن عدة فصول متراصة بجانب بعضها البعض، بالإضافة إلى حجرة الناظر وحجرة الفئران بالطبع، يفصلهم عن فناء المدرسة ممر طولي أو طرقة ضيقة، بالإضافة إلى حديقة بطول الممر لا يتعدى عرضها المتر والنصف، بها العديد من الأزهار، وبها نخلتين، وفى الجانب الأخر توجد دورات المياه والحمامات.

كنت حينها في الصف الخامس الابتدائي. وكان الفصل عبارة عن حجرة كبيرة بها تلاث صفوف من (الدكك)، يتخلل هذه الصفوف طرقة ضيقة تفصل كل صف عن الآخر بحيث تسمح بمرور شخص أو شخصين، والدكة الواحدة كان يجلس عليها ثلاث تلاميذ، و كان عدد التلاميذ في الفصل أربعين تلميذًا تقريبًا.

وفي يوم دخل علينا الأستاذ (أيمن) مدرس الرياضيات مستعرضًا عصا طولها يكاد يقارب طوله قائلًا:

- قيام... جلوس... من نسى كراسة الرياضيات يخرج لي هنا عند السبورة.

خرج أربعة تلاميذ ليقفوا عند الركن بجانب السبورة التي تحتل معظم مساحة الحائط في مقدمة الفصل. فنظر إليهم الأستاذ (أيمن) حانقًا مغتاظًا، ثم نظر إلى بقية التلاميذ في الصف قائلًا:

- ليخرج الجميع كراسته ويضعها أمامه على (الدكة) مفتوحة على آخر درس مكتوب فيها، فسوف أمر لأراها بنفسي.

ثم خرج من الفصل ليستدعي عم (محمد) الفراش قائلًا:

- عم (محمد).. أريدك هنا في الحال واحضر معك (الفلكة) لو سمحت.

هنا دب الذعر والهلع في قلوب التلاميذ وبدأ البعض منهم في البكاء والنحيب وبدأ جميعهم في التراجع والانكماش عند ذلك الركن بجانب السبورة.

بعد قليل دخل الأستاذ (أيمن) ومعه عم (محمد) الفراش، وهو رجل بدين ذو شارب عريض وجلباب أزرق. حاملًا في يده أداة عبارة عن عصا خشبية مربوط بها حبل من كلا الطرفين وهذه الأداة كانت تسمي (فلكة)! و(الفلكة) حينها كانت أداة رسمية معتمدة من وزارة التربية والتعليم لمعاقبة التلاميذ! لا أعرف في الحقيقة من ابتكرها؟ ومن

أين جاءته فكرتها السادية تلك؟! وكأنه استوحى فكرتها من آلات التعذيب المستخدمة قديمًا في محاكم التفتيش؟! فهكذا كان التعليم في أيامنا، وهكذا أيضًا كان الأستاذ (أيمن) نموذج للمعلم الفاضل الذي أنشد في حقه الشاعر أحمد شوقي يومًا ما قائلًا:

قُمْ للمعلّمِ وَفِّهِ التبجيل *** كادَ المعلّمُ أن يكونَ رسولا
أعلمتَ أشرفَ أو أجلَّ من الذي *** يبني وينشئُ أنفسًا وعقولا

واستحقاقا للحق، فربما لا يلام المدرس حيال ميوله السادية تلك في معاقبة تلاميذه، ففي أيامنا عندما كان يأتي أحد ولاة الأمور ليستخبر عن أحوال ابنه، فيوصى عليه مدرسه قائلًا:

- أريدك أن تكسر رقبته، وحين يأتيني هكذا سأكمل عليه ثم أرده إليك!

فكان بدلًا من أن يشتكي التلميذ من وحشية المدرس لوالده، كان يخشى بأن يعلم والده أنه عوقب وعذب من الأساس!

أمر الأستاذ (أيمن) أحد التلاميذ أن يخلع حذائه، ويطرح نفسه أرضًا، ويرفع قدميه الحافيتين ليضعهما بنفسه في تلك (الفلكة)! فانصاع الطفل له في ذل وانكسار، فقام عم (محمد) برفع قدم الطفل

داخل (الفلكة) لأعلى لتهيئتها للجلد، وبدأ بعدها الطفل في الصراخ متوسلًا مستجيرًا، ودب الذعر والهلع في قلوب بقية التلاميذ وازداد انكماشهم، وعلى نحيبهم وبكاءهم ليزداد معه توحش وحماسة الأستاذ (أيمن) في جلد ضحيته بلا رحمة!

حينها قام أحد التلاميذ من داخل الفصل لينضم إلى أولئك التلاميذ المنكمشين عند تلك الزاوية، فتوقف الأستاذ (أيمن) عن الجلد موجهًا بصره وحديثه لذلك التلميذ متسائلًا:

- أنت!.. لماذا لم تخرج من البداية؟
- كنت أظن أني أحضرت كراستي، ولكني لم أجدها في الحقيبة
- بل خرجت حين طلبت أن تضعوا الكراسات على (الدكة) لأراها! أما أنت فسيكون عقابك مضاعف، لتكون عبرة لغيرك.

طلب منه الأستاذ (أيمن) في غيظ أن يخلع حذائه، ويطرح نفسه أرضا ليضع قدمه داخل (الفلكة) كما طلب من التلميذ الأول، والذي لم يتوقف بكائه ونحيبه بعد من شدة الألم! لكنه لم ينصاع لطلبه وظل

جامدًا في مكانه وكأن الكلام ليس موجه له ولا يعنيه من الأساس!

فانفعل عم (محمد) وجذبه من ياقة قميصه بعنف قائلًا:

- هيا أسرع فليس لدينا اليوم كله لنضيعه عليك.

هنا سقط الطفل من فوره على الأرض مغشيًا عليه، وقامت حينها القيامة، وحل الهلع والتوتر ليعم أرجاء المدرسة كلها، والتفّ مدرسوها الأفاضل حول الطفل الذي لا يستجيب لمحاولات المسعفين، وكأنه فارق الحياة أو كاد أن يفارقها، بينما انزوى الأستاذ (أيمن) بكل جبروته وبطشه ليقف عند تلك الزاوية في حالة من الذهول والهلع، وأخذ يقسم لجميع من حوله بأنه لم يفعل لذلك الولد شيء! بل وأنه حتى لم يمسه!

حضر مدير المدرسة وجبينه يتصبب عرقًا، ليأمر بسرعة نقل الطفل إلى المستشفى في الحال. حينها هلل أحد الأساتذة مستبشرًا. فقد بدأ الولد يسترد وعيه أخيرًا. أخذ الطفل يفتح عيناه في تثاقل وإعياء شديد، وعلى الفور حمله ناظر المدرسة متوجهًا به إلى الفناء ليساعده على تنفس الهواء الطلق، وانتفض الأستاذ (أيمن) بدوره كمن عادت له الحياة من جديد، وأسرع مهرولًا بإحضار كمية لا بأس بها من العصائر ليقدمها

للطفل الذي نظر في عين أستاذه ليراه مذعورًا مرتبكًا! فكادت أن ترتسم على وجهه ابتسامة لولا أنه حبسها.

أرسل مدير المدرسة الطفل إلى منزله بعد أن تأكد من سلامته، وأعطاه إجازة ليومين كي يستريح، وأرسل معه عم (محمد) العامل بالمدرسة ليحمل عنه حقيبته ويتأكد من وصوله سالمًا.

وبعد انتهاء اليوم الدراسي أتى صديقي (بكر) لزيارتي في المنزل، وما أن وقعت عيناه على عيني حتى بادرني بقوله المعتاد:

- أنت شيطان يا يحي!

ودائما ما كان ينعتني (بكر) بهذا القول كلما تخطيت مأزق أو أفلت من عقاب! فقلت له مستنكرًا:

- كان من المفترض أن تشكرني بدلًا من نعتي بهذا القول!
- وعلى أي شيء أشكرك؟ هل قدمت لي معروفًا ما دون أن أدري؟
- بالطبع أيها الأحمق! فلن يعد هناك (فلكة) بعد اليوم، ولن يجرؤ أستاذ على التلذذ بتعذيب أحدكم بعد اليوم!
- لقد تعمدت الخروج رغم أنك لم تنسَ كراستك لتحدث كل هذه الفوضى!

- بل تعمدت الخروج لأضع حدًا لهذه المعاناة يا(بكر)!
- لقد كدت أن أوشي بك في اللحظات الأخيرة. فلعلك نسيت أنه ثمة صلة قرابة بيني وبين الأستاذ (أيمن)!
- لا لم أنسَ ذلك. ولتفعل ما يحلوا لك يا (بكر).

هنا قال (بكر) باسما:

- دائمًا ما تبهرني يا (يحي) بأفعالك هذه، ولكن ليس كل مرة تسلم الجرة يا صديقي، لابد من سقطة يومًا ما، ولا أخفيك سرًا أني أنتظر تلك السقطة بفارغ الصبر، فقد بت أرتاب من أمرك كثيرًا وأشعر بأنك مختلف عنا بالفعل!
- بالطبع يا (بكر) أنا مختلف عنكم، على الأقل أنا لست بأحمق يا صديقي.

هكذا كنت وأنا في هذا السن المبكر شديد الثقة والاعتزاز بكينونتي. كنت لا أرى في هذا العالم من يكافئني في المكر والدهاء. فكنت أستخف بعقول كل من حولي وأرى أنه يسهل التلاعب بهم. ولا أخشى أحد أيًا كان.

ماعدا هذا الشيخ أشيب الشعر! فالخوف الذي طالما قهرته بداخلي أراه يتملكني كلما وقعت عيناه في عيني! كان يأتيني في كل ليلة حين أرتقي وأتحرر من جسدي بين اليقظة والنوم! لا أعرف من هو؟ وماذا يريد؟!

نظراته لي تخترق جسدي وتوجعه! وكأنه يبحث أو ينظر لشيء ما بداخلي لا أعرف ما هو! ملامحه الهادئة الصامتة تخفي من ورائها قوة مجهولة ومخيفة! إنه لا يتحدث ولا يريدني أن أتحدث! فكلما حاولت التحدث إليه لأزيل عن نفسي تلك الرهبة التي تتملكني ولكسر هذا الصمت المخيف أعجز عن تحريك لساني! بل أعجز حتى عن تحريك أيًّا من جوارحي! كأن جوارحي كلها مكبلة بأثقال لا تراها عيني، ترهقني كلما حاولت التحرر منها!

***

مرت الأيام وأنا على هذا الحال، وكنت أجلس على (دكة) في منتصف الفصل تمامًا، ويجلس بجواري صديقي (بكر) ذلك الصديق الكئيب الذي ظله لا يفارق ظلي، والذي فرغ نفسه تمامًا لتنصب كل اهتماماته في مراقبة تصرفاتي وعد أنفاسي ثم نعتي بقوله المعتاد:

- أنت شيطان يا يحي؟

وفي حصة اللغة العربية دخل علينا الأستاذ (طايع) مدرس أول اللغة العربية، جهبذ من جهابذة اللغة، وعلم من أعلام الأدب، دخل متأبطًا عصاه الرشيقة، ويحمل في يده حقيبة بنية مصنوعة من الجلد.

- «قيام.... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته..... جلوس.

وضع حقيبته على المنضدة، وأخرج منها كشكول التحضير، ثم أمسك بالطبشورة واتجه إلى السبورة، تأكد أن البسملة في منتصفها، والتاريخ الهجري على يمينها والميلادي على الجانب الآخر منها، ثم كتب جملة طويلة وضع تحت إحدى كلماتها خط ليميزها، ثم رجع خطوتين للخلف، وأشار بعصاه الرشيقة على الكلمة المميزة قائلًا:

- أعرب ما تحته خط.

رفع بعض التلاميذ أيديهم وكنت أنا أولهم وأكثرهم حماسًا، وإذا بصديقي (بكر) يهمس لي في حذر قائلًا:

- قل بسرعة قبل أن يأتيني يا (يحي).. قل.

ولكني لم ألتفت إليه ولم أعيره أي اهتمام. أخذ الأستاذ (طايع) يمر في الطرقة التي تتوسط صفوف (الدكك) باحثًا عن فرائسه، وأول فريسة له تكون دائمًا وكالمعتاد هو صديقنا (عبد الرحيم)، فهو فلتة من فلتات الزمن، ولا أعرف حقًا كيف تمكن (عبد الرحيم) من اجتياز اختبارات السنين السابقة ليصل إلى الصف الخامس! فهو بالكاد يستطيع أن يكتب اسمه، بل وربما يخطئ فيه!

قام (عبد الرحيم) وكالعادة فاتحًا فاه، ملتزما الصمت التام كما لو كان صنم لا يتكلم، مثبتا نظره على الأستاذ (طايع) لا يفارقه! فقال له الأستاذ (طايع) بلهجة تقترب إلى التوسل والرجاء:

- قل أي شيء حتى ولو خطأ يا (عبد الرحيم)، سأتقبله منك وأسعد به، فقد باتت كل أماني أن أسمع صوتك قبل أن أموت! لماذا تنظر

إليَّ هكذا؟ فالكلمة ليست مكتوبة على وجهي! إنها هناك على السبورة أتراها! قل أي شيء يا (عبد الرحيم) أرجوك.

ولكن لا حياة لمن تنادى! حينها أمره الأستاذ (طايع) بفتح يده، ثم ضَرَبَه بالعصا ضربة واحدة، ملتزما بالتعليمات الصارمة التي أصدرتها إدارة المدرسة، فبعد حادثة (الفلكة) التي أخبرتك عنها، قد ألغت إدارة المدرسة استخدامها بشكل رسمي، وشددت على عدم الإسراف في معاقبة الطلبة، فحددت لذلك ضربة واحدة فقط أو اثنين بحدٍ أقصى عند الضرورة والحاجة لذلك. وبعد أن أخذ (عبد الرحيم) ضربته أمره الأستاذ (طايع) بالتوجه إلى آخر الفصل للوقوف بجوار الحائط لنهاية الحصة، ثم انتقل إلى الفريسة التالية ثم التالية وهكذا، حينها همس لي (بكر) مرة أخرى وقد بلغ التوتر منه مبلغًا قائلًا:

- أخبرني بسرعة قبل أن يأتيني أيها النذل، قل شيئًا. قل!

ومرة أخرى لم أستجب لطلبه ولم ألتفت إليه. وحين اقترب الأستاذ (طايع) من مقعدنا، ازداد توتر (بكر) بشكل مفضوح، حتى باتت رائحة الخوف والتوتر تفوح منه، فبعد أن تخطانا بخطوتين استدار فجأة بحركة سينمائية مبهرة ليضع يده على كتف (بكر) كأنه أمسك لصًا!

فضجت في أعماقي ضحكة تكبدتُ العناء في إخفائها. حيث قال له الأستاذ (طايع):

- أنت قم وأجب.

ودون أن ينطق (بكر) بكلمة واحدة قام مطأطأ رأسه فاتحًا يده للضرب، ثم توجه إلى الحائط عند آخر الفصل لينضم إلى (عبد الرحيم) ونخبة من خيرة الأصدقاء المتميزين.

وبعد أن أشبع الأستاذ (طايع) غريزته في نشر الرعب والفزع في قلوب التلاميذ، ليرسخ في نفوسهم أنه ذلك الأستاذ (المبجل) صاحب الهيبة الذي يجب أن يهابه التلاميذ فور دخوله عليهم الفصل! توجه بعدها إلى السبورة وكتب عنوان الدرس الجديد، ثم بدأ الحصة.

وبعد انتهاء الحصة رجع (بكر) ليجلس بجواري غاضبًا دون أن يتحدث إليَّ بكلمة واحدة، فسألته:

- ما بك يا (بكر)؟ هل هذا هو الخصام ؟!

فنعتنى هذه المرة بالنذل متسائلًا:

- لماذا لم تخبرني بالإجابة حين طلبتها منك؟

فأجبته مبتسمًا وأنا أستحضر في ذهني ذلك المشهد المدهش قائلًا:

- لأنه ليس لدي إجابة من الأساس لأخبرك بها يا (بكر)!
- ولماذا إذًا كنت رافعًا يدك أيها المخادع؟!
- لأكون في مأمن من بطش الأستاذ (طايع)! فهو لا يهمه معرفة من لديه الإجابة على سؤاله. فهدفه الأساسي من طرح سؤاله المعتاد، هو اصطياد أكبر عدد من الفرائس ليذيقهم بأسه ومرارة عصاه الرشيقة تلك، فحين أرفع يدي لا يعيرني اهتماما ولا يلتفت إليَّ حتى، وبذلك أكون في مأمن من بطشه!
- أي شيطان أنت؟!
- على أي حال يمكنك أن تفعل مثل هذا الشيطان إن أردت أن تفلت من العقاب في المرة القادمة يا (بكر).

وبالفعل ففي اليوم التالي رفع (بكر) يده بحماس مبالغ فيه، حتى أنه كاد أن يفقع عين الأستاذ (طايع) بيده حين اقترب منه، وكاد بذلك أن يفسد الأمر برمته، لولا أن شغف الأستاذ (طايع) باصطياد أكبر عدد من الفرائس قد أعماه عن اكتشاف تلك الحيلة التي أصبحت واضحة للأعمى.

وسر (بكر) كثيرًا أنه قد أفلت من بطش الأستاذ (طايع) وذلك لأنه تقريبًا كان يعاقب في كل حصة ويقضيها واقفًا عند الحائط بجانب الأخ (عبد الرحيم) وبقية النخبة المتميزة من الأصدقاء لآخر الحصة.

وبعد انتهاء المدرسة وفى طريق عودتي إلى المنزل بصحبة (بكر) رأيت جروًا رضيعًا بجانب جدار أحد المنازل، كان يأن من الجوع، لا أعلم حينها ما الذي جذبني إليه! فأنا لست مولع باقتناء الحيوانات عامة وخصوصًا تلك الكلاب، ولكني وجدت نفسي أميل عليه وأتفحصه، فقال (بكر) متسائلًا:

- يحي!.. ماذا تفعل؟ أتركه وهيا نمضي في طريقنا.
- سوف آخذه معي إلى المنزل لأتولى رعايته.. فأظنه سيكون كلبًا جيدًا.
- بل أظنه سيكون كلبًا ملعونًا يا صديقي.
- ما دفعك لقول ذلك.
- مجرد استنتاج، فما ظنك بكلبٍ يربيه شيطان مثلك يا (يحي)؟ ماذا عساه أن يصبح غير كلبًا ملعونًا؟
- هههه.. ليكن ما يكونه هذا الكلب فأنا سوف أقتنيه على أي حال.
- لا أظن أن أباك سيوافق على اقتنائك لهذا الجرو.

- بل أظنه سيوافق يا (بكر).
- ليكن رهانًا بيننا إذًا يا (يحي) وسأصحبك إلى منزلك لأرى إن كنت سأكسب الرهان هذه المرة فأنا أتطوق لرؤية هذا منذ زمن، وأظن أني سأنالها أخيرًا.

وحين وصلنا إلى المنزل كان أبي واقفًا بجوار بابه بصحبة رجلين من ساكني الحي يتشاورون فيما بينهم في بعض شؤون الحي، وحين انتبه لما أحمله في يدي قطع حديثه وسألني:

- ما هذا الذي تحمله في يدك؟
- هذا جرو صغير يا أبي وجدته ملقي بالجوار فأحضرته لأعتني به.
- ألقي بهذا الشيء بعيدًا يا (يحي)، فلن أقتني كلبًا في بيتي!
- أرجوك يا أبي دعني أحتفظ به.
- قلت لك ألقي به بعيدًا يا ولد ولا تعارضني!

وهنا كاد (بكر) يصرخ من فرط إحساسه بالنشوة، إلى أن تدخل عم (جابر) الواقف بجوار أبي قائلًا:

- دعه يا (كامل) ولا تكسر بخاطره!

- ليس هناك من ضرورة تجعلني أقتني كلبًا في بيتي يا (جابر) فلماذا أقتنيه؟! ثم إنه سيلهيه حتما عن متابعة دروسه.
- يا أخي كلنا كنا صغارًا يومًا ما ورغبنا في مثل هذا وأكثر! دع الولد يستمتع بطفولته كما استمتعنا بها يومًا ما قبل أن تلهيه الحياة وتقسوا عليه! وإن رأيته انشغل عن دروسه تخلص منه، لكن لا تكسر بخاطره الآن من أجلي.
- لكن يا (جابر)....

حينها تحولت أبصار الجميع إلى عم (فتح الله) الجالس عند حائط المنزل المجاور لمنزلنا، بثيابه الرثة ولحيته الطليقة القذرة وهو يردد ضاحكًا:

- الملعون مزق حذاء جابر. الملعون مزق حذاء جابر.. هههه

وعم (فتح الله) هو أحد المجاذيب في بلدتنا، حاله كحال سائر المجاذيب هنا، لكن شيئًا ما يميزه عن البقية جعل جميع من في البلدة يخشاه ويهابه! فدائمًا ما كانت كلماته الموجهة لأشخاص بعينهم تكون ذات دلالة! فإما أن تكون بشارة يزفها لصاحبها، أو نذير شؤم لمصيبة ستحل به قريبًا! وحين لم يجد الناس تفسيرًا منطقيًا لهذا الأمر قالوا بأنه رجل مبارك!

ارتسمت ملامح القلق والتوتر على وجه عم (جابر) وتغير لونه! فكلمات (فتح الله) هذه لا تبشر بخير أبدًا! (الملعون، مذق، جابر؟!) إنه إذًا هالك لا محالة!

ساد الصمت لثواني معدودة زاغت فيها الأبصار وانشغلت عقول الحاضرين في محاولة تحليل واستنتاج تلك الكلمات، لمعرفة أي مصيبة هذه التي ستحل قريبًا بعم (جابر).

إلى أن انطلقت فجأة تلك الصرخة الحادة التي شقت ذلك السكون الرتيب الذي ساد الموقف للحظات، ففزع وهرول الجميع ليتطلعوا الخبر! كان هناك رجل ملقي على الأرض وقد شجت رأسه وسالت منها دماء غزيرة، فامتزجت بتراب الأرض الطينية، وصنعت حوله بركة حمراء موحلة، وبجوار رأسه كان حجر عليه آثار الدم والطين!

تساءل الجميع عما حدث، فأخبرهم الشيخ (إبراهيم) صاحب الدكان المجاور وهو من رأى الواقعة بعينيه أنه ذلك الحجر ارتطم برأس الرجل ففتحها! تصايح الحضور باستنكار، وساد الهرج والمرج، قبل أن يقطعه صوت عم (عطوة) الأجش سائلًا:

- ومن ألقى بهذا الحجر ؟!

فسارع الشيخ (إبراهيم) بالرد:

- أكيد أحد هؤلاء الصبية الملاعين، فقد كانوا يتشاجرون هنا منذ قليل قبل أن أقوم بإبعادهم.

تصايح الجميع مرة أخرى، وشكلوا على الفور ثنائيات وثلاثيات لتدارس الموضوع، بينما أخذت الجرو وصعدت به إلى سطح المنزل حيث وضعته في مكان مناسب لأعتني به وتبعني بكر بدوره، ودون أن ألتفت لبكر الذي كان يرمقني بنظرته المريبة تلك والتي كان يرمقني بها كلما خابت آماله في الإيقاع بي! قلت له:

- لقد خسرت الرهان يا صديقي كما هو المعتاد.
- ما كان ليوافق أبوك لولا تدخل ذلك الرجل. فالحظ يحالفك كالعادة!
- يقول أبي أنه ما من شيء يحدث في هذه الحياة مصادفة، بل هناك أمر يدعى القدر، وهذا القدر مكتوب ومحسوم قبل مجيئنا إلى هذه الدنيا!
- وهل تزعم معرفتك بهذا القدر يا (يحي)؟! فأنا أرى أن خطواتك دائمًا توافق خطوات ذلك القدر، وكأنك تعلم به مسبقا؟!

- لا. أنا فقط ينتابني شعور غريب تجاه بعض الأحداث والأشياء، ودائمًا ما أكتشف أن لهذا الشعور مدلول ومعنى! لذلك فأنا أتبع ذاك الشعور دائمًا، ولذلك أخذت هذا الجرو، ولهذا أيضًا أبقي على صداقتك رغم كآبتك وتطفلك المزعج هذا يا (بكر)!

ابتسم (بكر) وقال مازحًا:

- ولا تحاول أن تفعل ذلك يا (يحي) فأنا قدرك ولن يسعك التخلص منى. سأذهب الآن وأراك غدًا في المدرسة.

وفى اليوم التالي في المدرسة، وفي حصة اللغة العربية دخل علينا الأستاذ (طايع) كعادته، دخل متأبطًا عصاه الرشيقة، ويحمل في يده تلك الحقيبة البنية المصنوعة من الجلد.

- «قيام... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته... جلوس.

وضع حقيبته على المنضدة، وأخرج منها كشكول التحضير، ثم أمسك بالطبشورة واتجه إلى السبورة، تأكد أن البسملة في منتصفها، والتاريخ الهجري على يمينها والميلادي على الجانب الآخر منها، ثم

كتب جملة طويلة وضع تحت إحدى كلماتها خط ليميزها، ثم رجع خطوتين للخلف، وأشار بعصاه الرشيقة على الكلمة المميزة قائلًا:

- أعرب ما تحته خط.

ليتفاجأ حينها بأن الفصل بكامله يرفع يده في حماس شديد! والذي أدهشه أكثر وزاد الطين بلة أن (عبد الرحيم) هو الآخر يرفع يده!

أقصد يرفع كلتا يداه! فعلى ما يبدو بأن (بكر) قد أخبر الجميع بالحيلة!

وعلى ما يبدو أيضًا بأنه قد أخبر ذلك المغفل أنه كلما كان أكثر حماسًا كلما كان في مأمن من بطش الأستاذ (طايع) وعقابه!

وعلى الفور وبدون تردد قال الأستاذ (طايع):

- قم يا (عبد الرحيم) وأجب عن السؤال. قم أرجوك!

فقام (عبد الرحيم) فاتحًا فاه.. ملتزمًا الصمت التام كما لو كان صنمًا لا يتكلم.. مثبتًا نظره على الأستاذ طايع لا يفارقه!

فهز الأستاذ (طايع) رأسه متفهمًا، ثم نظر إلى تلميذ آخر قائلًا:

- أنت قم وأجب.. وأنت قم.. وأنت.. وأنت..

ليكتشف حينها أنه لا أحد ممن رفعوا أيديهم لديه إجابة على سؤاله! فاستشاط غضبًا وقرر أن يضرب الجميع ثلاث ضربات، ضاربًا بالتعليمات المشددة من قبل الإدارة للحد الأقصى لعدد الجلدات المسموح بها عرض الحائط! وكان هذا لشدة غيظه وغضبه، فقد أحس أن هيبته قد اهتزت عند تلاميذه، ولم يعد في نظرهم ذلك الأستاذ المبجل ذو الهيبة!

وبدء الأستاذ (طايع) في ضرب التلاميذ واحدًا تلو الآخر منتقمًا لهيبته، وما أن أشار إليَّ قائلًا:

- أنت.. قم وأجب.

حتى قمت وأجبته قائلًا:

- مفعول مطلق.

فامتعض وجهه وظهرت عليه أعتى علامات الاشمئزاز وقال مستنكرًا:

- مفعول مطلق؟! ليتك سكت ولم تجب افتح يدك.

ففتحت يدي وأخذت أول ضربة ثم جلست. فقال مستنكرًا:

- لما جلست؟ قم ما زال هناك ضربتين مثلك مثل بقية زملائك.

- ولكني لست مثلهم!
- وما الذي يميزك عنهم؟
- هم رفعوا أيديهم دون أن يكون لديهم إجابة للسؤال! أما أنا فلدي إجابة ولكني فقط أخطأت، ولذلك عقابي هو ضربة واحدة وقد أخذتها يا أستاذي.

فسكت الأستاذ (طايع) برهة يفكر، ثم قال:

- اجلس أنت.

حينها سمعت (بكر) يتمتم ببعض الكلمات والتي من المؤكد أنها لن تخلوا من كلمة (شيطان) كما هو المعتاد!

وما أن انتهى الأستاذ (طايع) من جلد آخر طالب حتى توجه إلى مقدمة الفصل مخاطبًا تلاميذه في غضب قائلًا:

- «تستهزؤون بي أنا أيها الأوباش؟! سوف أجعلكم تندمون على فعلتكم هذه، وسوف تكون حصة اللغة العربية عليكم جحيم بعد الآن، إلا إذا أخبرتموني بمن اقترح عليكم هذه الحيلة. فليس من

المعقول أن يفكر الجميع في نفس الحيلة جملة واحدة. لابد أن هذه الفكرة لشيطان بينكم. أخبروني من هو وينتهي الأمر.

التزم الجميع الصمت ولم يجيبه أحد. فنظر إلى الأرض وفكر برهة، ثم رفع بصره إلى (عبد الرحيم) قائلًا:

- قم يا (عبد الرحيم).

قام (عبد الرحيم) فاتحًا فاه.. ملتزمًا الصمت التام كما لو كان صنمًا لا يتكلم.. مثبتًا نظره على الأستاذ طايع لا يفارقه! حينها لمعت عين الأستاذ (طايع) واستطرد قائلًا:

- عندي لك عرض يا (عبد الرحيم) وأظنه سيروق لك. إن أخبرتني بمن اقترح عليكم هذه الفكرة فلن أعاقبك لبقية العام. وهذا وعد مني بذلك.

وعلى الفور وبدون تفكير أشار (عبد الرحيم) إلى صديقنا (بكر) قائلًا:

- إنه (بكر). هو من اقترح علينا هذه الحيلة.

فابتسم الأستاذ (طايع) فرحًا حتى بانت نواجذه! ولا أدري حقًا، أكانت تلك الابتسامة والفرحة الشديدة لكونه عرف صاحب الفكرة

وأوقع به؟ أو لأنه أخيرًا قد تحققت أمنيته وسمع صوت (عبد الرحيم) قبل وفاته؟ المهم أن (بكر) قد حصل على ثلاث ضربات إضافية، بالإضافة إلى جواب (الشرف) باستدعاء ولي الأمر.

حينها نظر إليَّ (بكر) في غيظ وكمد قائلًا:

- هذا لأني اتبعت شيطانًا مثلك.

فقلت له:

- بل هذا لأنك غبي يا (بكر)! مثلك مثل الجميع، فقد أفسدت عليّ حيلتي مع هذا (المبجل)، وعليّ الآن البحث عن غيرها.

عدت إلى المنزل وكعادتي توجهت إلى غرفتي لتبديل ملابسي قبل أي شيء، وكانت الغرفة في الطابق الثاني، حينها انتابني شعور غريب بأن أحدًا يتعقبني! وكأني أسمع خطوات لشخص ما قادمًا نحوي من الخلف!

تلفت من حولي في حذر وترقب فلم أجد أحدًا في الغرفة! ومع ذلك بدأ الشعور بهذا الشيء يتزايد؟! وبدأ يتملكني الخوف من شيء ما، لا تراه عيني؟! حاولت أن أتمالك نفسي لأزيل هذا الإحساس الغريب والذي لا أجد مبررًا له! ولكني لم أستطع أن أكبح ذلك الشعور المريب

بأن هناك خطب ما! وأن الأمر يزداد سوءً! وأنى بالفعل لست بمفردي في الغرفة! التوتر يملئ أرجاء الغرفة كلها من حولي! هناك أنفاس تحيط بي وتقترب مني شيئًا فشيء! لا أراها ولكني أشعر بوجودها تقترب أكثر فأكثر! بدأت أطرافي تتثاقل وتتقيد معها حركتي! القشعريرة تنتاب جسدي معلنةً أن هناك خطرًا ما يحيط بي ويحاصرني من كل اتجاه!

إلى أن دخل أخي الأكبر الغرفة متسائلًا في دهشة:

- ما بك يا (يحي) ؟ لماذا تقف في وسط الغرفة وتتلفت بهذا الشكل الغريب؟!

حينها استعدت السيطرة والإحساس بأطرافي من جديد، وقد زال ذلك التوتر الذي عم أرجاء المكان. فأجبته قائلًا:

- لا عليك، فقط تخيلت وجود شيئًا ما في الغرفة فخفت أن يكون (فأرًا) وأنت تعرف كم أشمئز من رؤية هذا المخلوق.

غادر أخي الغرفة بعد أن تفهم الأمر على النحو الذي أخبرته به، وأسرعت باللحاق به خوفًا من تكرر الأمر إن بقيت بمفردي.

وحين حل موعد النوم، ظللت جالسًا على سريري لبعض الوقت مستيقظًا، فما زلت لم أتخلص بعد من ذلك الشعور بالخوف الذي تملكني حين أحيط بي في هذه الغرفة من أشياء أحسست بوجودها ولم تراها عيني!

بالإضافة إلى أني على موعد مع ذلك الشيخ الأشيب، فقد اعتدت على زيارته لي في كل ليلة، ومع ذلك لم آلف رؤيته بعد، ففي كل مرة أراه فيها كأنها المرة الأولى! نفس الشعور بالخوف الذي يتملكني حين تلتقي عينه بعيني في كل مرة! ونفس الإحساس بالألم حين تخترق نظراته تلك ضلوعي!

حتى أني أعجز عن تفادى النظر إليه، فالأمر برمته خارج عن إرادتي!

فكرت في النوم بجوار أخي على سريره، ولكن كبريائي منعني من أن يلحظ الخوف وقد تملك مني، فالموت أهون على من أن أضع نفسي في هذا الموضع، مكثت على سريري لبعض الوقت أصارع النوم. إلى أن غلبني النعاس.

وكدأبي به في كل ليلة عند الارتقاء والانفصال عن جسدي، كان الشيخ الأشيب يقف أمامي بنظراته الحادة العميقة التي تخترق جسدي وتؤلمه دون حول مني ولا قوة! ولكن كان الأمر هذه المرة مختلف عن

المرات السابقة! فهذه المرة لم يكن الشيخ الأشيب بمفرده! بل كان هناك من يحيطون بي من كل اتجاه، لا أرى شيئًا ولكني أشعر بوجودهم! أسمع دبيب لخطى تسير نحوي! أشعر بأنفاسهم من خلفي تقترب شيئًا فشيء!

لا أستطع الالتفات والنظر خلفي، فجوارحي كلها مثقلة مكبلة بقيود لا تراها عيني قد شلت حركتي تمامًا بفعل ذلك الأشيب!

ومن داخل الظلام خلف الشيخ الأشيب، خرج ثلاث كلاب سود لم أرَ لبشاعة هيئتهم مثيل، وكأن الرعب قد تجسد على هيئتهم لتراه الأعين وتعاينه، تخرج منهم زمجرة، صوت كالهدير مرعب ينذر بالويل والهلاك.

استقرت الثلاثة كلاب عند قدم الشيخ الأشيب لبعض الوقت قبل أن تتعالى زمجرتهم المرعبة تلك وهم ينظرون إليّ، ثم انطلقوا نحوي كالسهام وكأنهم الموت يركض ليمزق جسدي بأنيابه المرعبة. حاولت التحرر من قيودي فلم أستطع حتى أن أحرك إصبع قدمي، بل ولم أستطع حتى أن أغمض عيني كما تفعل النعامة كي لا أرى بشاعة الموت يزحف منقضًا عليّ. ولكن الكلاب لم تقربني! بل تخطتني لتهاجم شيئًا ما خلفي! إنها تلك الأشياء التي أشعر بوجودها حولي! أسمع من خلفي أصواتًا غريبة متداخلة ومرعبة! إنها (صراخ، نباح، زمجرة، عواء..).

لقد تكسرت عظام روحي إن كان للروح عظام تُكسر. سال الدمع من عيني وظللت أردد في نفسي:

- إنه مجرد حلم وسينتهي. كل هذا سينتهي قريبًا. سينتهي..

حينها استيقظت على صوت أخي يوقظني متسائلًا في حيرة:

- ما بك؟ لماذا تبكي وتتألم هكذا في نومك؟!
- لا شيء يا أخي. إنه مجرد كابوس مزعج. فلا تشغل بالك بالأمر.

أخذت حينها أتساءل في نفسي: لماذا يحدث معي كل هذا؟! لماذا أنا دون غيرى؟! ما الجرم الذي اقترفته ليكون هذا هو عقابي؟!»

***

وفي يوم طويل ممل من أيام المدرسة ضرب جرس الفسحة أخيرًا، فذهبت إلى فناء المدرسة لاستنشاق الهواء النقي، فقد كدت أن أختنق من أنفاس ورائحة العرق داخل الفصل، وبالطبع كان برفقتي ظلي وقدري المحتوم صديقي (بكر)، وكان ممسكًا كيس الساندويتشات الخاص به، حيث أخرج أحد الساندويتشات وهم بتناوله. وقبل أن يصل إلى فمه اختطفه أحدهم ولاذ بالفرار!

لقد كان السارق هو (عبده)، لص الساندويتشات في المدرسة، وهو تلميذ في الصف الرابع، ينتمي إلى عائلة ميسورة الحال، وكان اختطاف الساندويتشات بالنسبة (لعبده) ليست هواية يتسلى بها، بل كان مرض وداء عضال عجزت كل الطرق في علاجه سواءً عن طريق العلاج النفسي أو العقاب.

وكان (عبده) يخطف الساندويتشات بخفة يد رائعة، فبمجرد أن يخطفها يضعها في فمه بسرعة مدهشة حتى يهيأ لك أنه يخطفها بفمه وليس بيده!

وقد تفهمت إدارة المدرسة حالة التلميذ واتخذت الإجراءات اللازمة، فأصدرت بيانها العاجل:

"على جميع التلاميذ بالمدرسة أن يتوخوا الحذر، وعلى كل من يفقد ساندويتشاته ألاَّ يتقدم بشكوى إلى إدارة المدرسة لاستعادة الساندويتشات أو معاقبة (عبده)!"

حتى وصل الأمر أنه حين يذهب أحد الطلاب لشراء ساندويتش من منفذ المدرسة، فيقوم عم (محمد) الفراش بإعطائه الساندويتش محذرًا إياه: "احترس من (عبده)".

فلم أكن أستبعد يومًا حينها أن أذهب إلى المدرسة لأجد مكتوبًا على مدخل المدرسة بجانب عبارة: مدرستي نظيفة/ حافظ على نظافة المدرسة/ تحيا مصر/ مصر هي أمي. و(احترس من عبده)!

ومع كل هذه الحيطة والحذر، ومع كل تلك التعليمات والتوجيهات، إلاَّ أن الله لا ينسى (عبده) أبدًا، فيرزقه كما يرزق الطير، حيث يخرج إلى الفسحة خماصًا ويعود منها بطانًا، رغم كيد الكائدين!

وفى يوم من الأيام حدثت في المدرسة ضجة كبيرة وجلبة! فقد سرق (عبده) ساندويتش الجبنة الرومي للأستاذ (صابر)!

والأستاذ (صابر) هو رجل بدين، بينه وبين الطعام عشق من نوع فاضح.

فتراه في أثناء تناوله لطعامه يتأمل الساندويتش في يده ويهيم معه لينعزل به في عالم خاص ليس فيه سواهما، ويظل يداعبه ويغازله بأنامله، ثم يراوده عن نفسه فيستسلم الساندويتش له طوعًا، فيميل عليه ليقبله في شوق، فيأخذ منه الفطمة تلو الأخرى، حتى يمتزج ويتداخل المعشوقان، ويملأ بالحب والعشق بطنه، ثم ينتشر ويجرى في عروقه ودمه، فيداعب الحب كل خلية من خلايا جسده، ثم يدخل الحمام -عفاك الله- ويتخلص منه، ليبدأ بعد ذلك قصة حب أخرى جديدة مع ساندويتش آخر.

وعلى ما يبدو أن ساندويتش الجبنة الرومي هذا كان هو المفضل بالنسبة للأستاذ (صابر) وكان يذخره ليختم به وجبته، فأخذ المدرسين يهدئون من روع الأستاذ (صابر) وغضبه، وكلما نجحوا في تهدئته ثار من جديد حين يداعب مخيلته طعم ورائحة ساندويتش الجبنة الرومي الذي حرمه منه ذلك اللص اللعين، فقال له ناظر المدرسة متسائلًا:

- ولماذا لم تأخذ الحيطة والحذر يا أستاذ (صابر) وأنت تتناول طعامك؟
- لم أكن أتخيل أنه يجرؤ على فعلها معي!

- يا أستاذ (صابر) أنا ناظر المدرسة وحين أتناول طعامي وفى مكتبي ألتفت حولي خشية أن يغدر بي عبده، فمن أين أتيت أنت بكل هذه الثقة!

كنت أقف بعيدًا أراقب الأحداث بشغف وعيني لا تفارق (عبده) الذي يقف متواريا في ذعر خلف أحد الأساتذة خوفًا من أن يبطش به الأستاذ (صابر)، ويفتح (كرشه) ليستخلص ساندويتش الجبنة الرومي منه!

لم أكن أنظر حينها لهيأته قدر ماكنت أنظر لداخله متعجبًا. فكيف لهذه النفس البشرية المعقدة أن تتحكم في صاحبها وتجبره على الانصياع لرغباتها متحدية كل العواقب والمخاطر والتهديدات؟! كيف عجز كل من الطب والعصا على تطويعها وإصلاحها؟! أيكون هذا لأن الجميع مجرد حمقى ولا يجيدون التعامل معها؟

وفى اليوم التالي ضرب جرس الفسحة فتوجهت إلى فناء المدرسة برفقة ظلي وقدري (بكر)، فأخرجت ساندويتش من الكيس الذي كنت أحمله وهممت بتناوله، فإذا بأحدهم يختطفه بخفة يد مدهشة ويلوذ بالفرار، وما أن ابتعد لبضع خطوات حتى توقف وألقى بالساندويتش أرضا وبدأ بالتقيؤ والصراخ.

لقد كان هذا (عبده) كما تعلم، وأظن أنه تقيأ في ذلك اليوم كل لقمة قام باختطافها منذ ولدته أمه.

عاد (بكر) بعد أن تحرى الأمر لينظر إليَّ في ذعر قائلًا:

- أقسم أنك شيطان مبين يا (يحي)، كيف لك أن تعطيه هذا الشيء؟!
- أنا لم أعطه شيئًا، بل هو من اختطفه منى أمامك بينما كنت أتناوله!
- أكنت ستأكل ساندويتش مليء بالديدان والصراصير أيها (الشيطان)؟!
- وما الغريب في ذلك يا (بكر)؟ فهذا هو الطعام المفضل بالنسبة (للشياطين)! ثم إنني لا أعلم ما يزعجك في الأمر فقد وقع ذلك اللص في شر أعماله!

وفى اليوم التالي أتى مدير المدرسة إلى فصلنا بصحبة ولي أمر (عبده)، حينها ابتسم (بكر) وهمس في أذني قائلًا:

- والآن أرني كيف ستفلت من العقاب هذه المرة يا (يحي)؟

قام المدير باستدعائي بالاسم، بعد أن أخبروه أولاد الحلال أني الفاعل، فخرجت إليه وقد ساد الهدوء والترقب المكان، حيث تساءل المدير في غيظ:

- أنت من أعطيت هذا الشيء لـ (عبده)؟!
- لا. بل هو من اختطفه مني كعادته!
- لقد تعمدت الإيقاع به. فلماذا؟
- أردت فقط أن أقدم له يد المساعدة
- وكيف ساعدته في نظرك بفعلتك هذه؟!
- إنه مريض وأظن أنني كنت أمتلك دوائه.

هنا قطع والد (عبده) الحديث موجهًا سؤاله لي:

- أتسمى ساندويتش مليء بالصراصير والديدان والحشرات دواء؟!
- ولما لا؟ فلكل داء دواء، والدواء الجيد دائمًا يكون مذاقه مر، وعلى المريض أن يتجرعه ويتحمل مرارته كي يبرأ من سقمه، وأظن الآن أن (عبده) قد برأ من سقمه ومن أول جرعة أخذها من الدواء الذي قدمته له.

ارتسمت على وجه الرجل ابتسامة ثم وضع يده على رأسي قائلًا:

- أنت لست كالأطفال في مثل عمرك، ولكن قد راق لي صنيعك هذا، فقد أسديت لي معروفًا قد عجز كل من الطب والعصا على تحقيقه! وأظن أني أصبحت الآن مدينًا لك أيها (الشيطان الصغير).

انصرف الرجل وعلى ما يبدو من قسمات وجهه أنه سعيد وراض عما حدث بالفعل، بينما ظل المدير واقفًا مكانه يرمقني في صمت، فقلت له متسائلًا:

- أتسمح لي بالدخول حضرة المدير. أم تريدني في شيء آخر؟
- لا. أنا فقط أتساءل متى ينتهي هذا العام لأتخلص منك؟

وحين أذن لي بالدخول استقبلني (بكر) بقوله:

- لقد اتضح لي أن وصفي لك بالشيطان إنما هو نعت للشيطان وليس لك!

لم أرد عليه فقد كنت حينها أنظر إلى تلك اللوحة المعلقة هناك على الجدار في ثبات! كنت أشعر بأن هناك خطب ما، أشعر أني رأيت هذا من قبل؟!

فتساءل (بكر) في حيرة وقد وجه بصره إلى موضع نظري:

- ماذا هناك يا (يحي)؟!

فأشرت إلى اللوحة على الحائط قائلًا:

- إنها اللوحة هناك!
- ما بها؟!

- لقد رأيتها من قبل!
- وماذا في ذلك يا (يحي)؟ فهي هناك منذ بداية العام!
- لا الأمر ليس على هذا النحو لقد....

لم أكمل كلامي حيث قطعه صوتًا غريبًا مرعبًا قد صم آذاننا، كأنه صوت لطائرة هليكوبتر تسقط فوق رؤوسنا تمامًا، فانخفضنا برؤوسنا لنحتمي تحت الدكة موجهين نظرنا إلى السقف حيث نظن أنه كان مصدر ذلك الصوت، ولكن لم يكن هذا مصدر الصوت المفزع من السماء، بل كان مصدره من تحت أقدامنا وقد صاحبه هزة أرضية عنيفة، تشقق لها الجدار واهتزت اللوحة المعلقة عليه بعنف لتسقط على الأرض من فورها!

عمت الفوضى أرجاء المكان، وأمر المدرسين التلاميذ بسرعة الخروج والوقوف في فناء المدرسة بعيدًا عن الجدران والأسقف، ثم جاءت الأخبار من الخارج أن المدرسة الابتدائية بالقرب من مدرستنا قد انهار جزء منها وأن هناك أطفال تحت الأنقاض، حينها انفجرت عيني الأستاذ (طايع) بالبكاء وخرج مهرولًا كالمجنون قاصدًا تلك المدرسة! رأيته حينها كأب فقد أبنائه وفلذات أكباده! فتعجبت. كيف لم أرَ هذا الجانب

الرحيم فيه من قبل؟! كيف استطاعت قسوة عصاه اللعينة تلك أن تُخفي ورائها كل هذه المشاعر والرحمة والأبوة الصادقة؟!

عدت إلى منزلي وبدأت أهيئ نفسي للنوم ومقابلة ذلك الزائر الغريب فليس بيدي حيلة لتجنب هذا اللقاء اليومي، فمن يستطيع أن يقهر النوم؟

وما أن دخلت في حالة الثبات حتى شعرت بأني أطفوا تاركًا جسدي ممددًا على الفراش وكالعادة ظهر ذلك الأشيب هناك ببشاعة هيئته ونظراته المؤلمة وصمته وغموضه، وكان هناك صوت كزمجرة أو هدير لأحد هذه الكلاب السوداء المرعبة التي شاهدتها بصحبة هذا الشيخ الأشيب من قبل، إنها قريبة جدًا مني وكأنها تحت قدمي تمامًا!، ولكني لا أرى شيئًا، فقط أرى هذا الأشيب أمامي والظلام يحيط بنا من كل اتجاه في هذا الفلاء الخالي تمامًا من أي شيء سوانا. إذًا من أين يأتي هذا الصوت الذي يزلزل كياني؟!

أخذت أجول ببصرى بصعوبة قدر استطاعتي وقدر ما هو مسموح لي فلم أرى شيئًا! بينما الصوت يعلوا منذرًا بوقوع أمرًا كارثي. وهنا أظلم المكان فجأة من حولي ولم أعد أرى أي شيء، ثم عادت الرؤية من

جديد لأجد نفسي مستيقظًا داخل حجرتي وقد عدت إلى جسدي من جديد، بينما ما زلت أسمع زمجرة هذا الكلب في أذني! وإذا بي أرى (أمي) واقفة عند باب حجرتي جاحظة العينين في ذعر ورهبة تنظر إلى شيء ما بجوار فراشي! وبطرف عيني لمحته جالسًا بجوار السرير حيث تعالت زمجرته وازدادت حدتها، لقد كان معي في الغرفة طيلة الوقت! كان ينظر إلى (أمي) متحفزًا ومتهيئًا للانقضاض عليها! بينما لاتزال هي واقفة متصلبة عند مدخل الغرفة بتلك النظرة الغريبة لم تبرح مكانها حتى!

كشر الكلب عن أنيابه وبدأ في التحرك نحوها، فأخذت تتراجع ببطيء، بينما كنت أحاول التحرر من تلك القيود اللعينة التي كانت تكبلني وتشل حركتي! حاولت الصراخ ولكن بلا جدوى فصوتي لا يفارق حنجرتي!

بدأت في التحرر من قيودي بينما أشعر بالدماء تفور في رأسي وتكاد عيني تنفجر من شدة الضغط الواقع عليها. وكلما خارت قواي صرخت في أعماقي إنها (أمي)، تراجعت باتجاه غرفتها ولكنها لم تدخلها! لقد دلفت إلى الحمام بجوار الغرفة! بينما الكلب يسعى في طلبها! بصعوبة تمكنت أخيرًا من الوصول لفراش أخي. حاولت إيقاظه

ليدركها فما زالت تلك القيود تشل حركتي، ولكنه يرقد كما الأموات لا يستجيب لمحاولاتي! فاستجمعت كل قوتي متوجهًا إلى غرفة أبي لعله يفعل شيئًا. أشعر بالدماء تسيل من أنفى ورأسي تكاد أن تنفجر!

لكنها (أمي)! زادت حدة زمجرة ذلك الكلب بعد دلوفه إلى الحمام حيث كانت هي. تمكنت أخير من الوصول إلى غرفة أبي. فتحت باب الغرفة بصعوبة بالغة مستجمعا كل ما تبقى لي من قوة مقاومًا تلك القيود، حينها تصلب الدم في عروقي، وسرت القشعريرة في جسدي. فكانت (أمي) نائمة بجوار أبي!

وهناك عند الزاوية في حجرتي ظهر الشيخ الأشيب، ورأيت الكلبان الآخران عند مدخل الغرفة متجهان إلى الحمام. فدلفت إلى الغرفة وأغلقت بابها، ولكن لم تعد قدماي حينها قادرة على حمل جسدي، فزحفت حتى وصلت إلى جانب السرير بجوار أبي، وأخذت وضع القرفصاء منكمشا على نفسي، فقد بدأ صراخ هذا الكيان شبيه أمي من داخل الحمام يصم أذني ويزلزل كياني.

لم يعد الأمر مقتصرًا فقط على النوم والرؤى وتلك الحالة التي أنفصل فيها عن جسدي، بل أصبحت الآن أسمع وأرى تلك الكيانات في يقظتي وأنا في كامل وعيي! أخذت حينها أتساءل في نفسي:

- لماذا لا يستيقظ الجميع؟!
- كيف لا يسمعون ما أسمع؟!
- لماذا أنا وحدي ولا يجيرني أحد؟! متى ينتهي هذا الكابوس؟!

نظر (يحي) في ساعة يده فبادره (عزت) بقوله

- لا.لا تقل أنك ستغادر الآن يا (يحي) رجاءً!

رد (يحي) قائلًا:

- للأسف يا صديقي عليّ المغادرة الآن. أراك في الغد.

وقبل أن يقوم (يحي) من مكانه رشف ما تبقى من كوب السحلب دفعة واحدة ثم نظر إلى الكوب أمام (عزت) قائلًا:

- لماذا لم تشرب مشروبك يا (عزت)؟! ألهذا الحد أخذتك الحماسة؟!
- لا ليس الأمر هكذا، أنا فقط لا أتحمل المشروبات الساخنة وكما تعلم فالسحلب يحتفظ بحرارته لفترة طويلة.

- اطلب مشروبًا آخر يمكنك تناوله إذا.
- السحلب يروق لي يا (يحي) كما يروق لك.

فابتسم (يحي) له ثم سار عائدًا إلى المنزل.

***

الفصل الثاني
نافذة على الجانب الآخر

في اليوم التالي بعد انتهاء العمل وفور رجوع (يحي) إلى المنزل استقبلته أمه قائلة:

- (يحي) الطعام جاهز فلا تتأخر كعادتك رجاءً.
- حاضر أمي، سأبدل ملابسي وأنزل على الفور.

وعندما دخل إلى غرفته أحس بحركة غريبة!، فجال ببصره في أرجاء الغرفة يتفقدها فلم يلاحظ شيء، فشرع في تبديل ملابسه وعندما خلع قميصه سمع صوت نغبشة أمعن السمع محاولًا معرفة كنه ذلك الصوت أو مصدره فلمح بطرف عينه شيئًا ككرة سوداء مرت بجانبه بشكل خاطف وسريع جدًا، فَكَرَ لبرهة استرجع فيها ذلك المشهد ثم جحظت عيناه قائلًا:

- إنه (فأر)!

أسرع بمغادرة الغرفة متجهًا إلى الطابق السفلي دون أن يكمل ارتداء ملابسه فنظرت له أمه في دهشة قائلة:

- ماذا دهاك يا (يحي)؟!، لم أكن أقصد بطلبي منك عدم التأخر أن تأتيني بهذا الشكل لتكمل ارتداء ملابسك هنا!

فرد (يحي) بانفعال قائلًا:

- هناك فأر في الغرفة!

هنا ضحك أخيه الأكبر (حمزة) والذي كان يجلس على مقربة منهما، ودون أن يعيره (يحي) اهتمامًا استطرد قائلًا:

- ما العمل يا أمي؟

فذهبت عنه لبضع دقائق ثم عادت تحمل في يدها مصيدة الفئران وفي اليد الأخرى كانت تمسك بثمرة طماطم حمراء ثم قالت:

- ضع ثمرة الطماطم في المصيدة وانصبها في غرفتك بحذر.

ثم سألته عن الفأر فقال لها:

- لم أتمكن من رؤيته بوضوح.

أخذ منها المصيدة وهو يقاوم شعوره بالاشمئزاز من منظرها، فأمسكها من قاعدتها الخشبية محاولا عدم لمس هيكلها المعدني واسلاكها الصدئة، والتي كان يراها وكأنها صورة مجسمة للرعب والموت.

غادر الغرفة مسرعًا مرة أخرى بعد أن وضع المصيدة وبدل ملابسه، وما أن انتهى من طعامه حتى خرج من المنزل قاصدًا تلك المقهى، ليجد (عزت) جالسًا هناك عند الطاولة! فسأله في دهشة:

- (عزت)! هل أنت مقيم هنا في المقهى حتى أراك كلما أتيت إليها في أي وقت؟

قال عزت باسما:

- إنها الوحدة يا صديقي، أنت تعلم أني أسكن هنا بمفردي، فحين لم أجد ما أقوم به بعد انتهاء العمل لا أجد غير هذه المقهى أشغل بها ما تبقى من يومي.

أحضر (سمير) كوبين من السحلب الساخن وضعهما على المنضدة ثم رحل دون أن يتفوه بكلمة واحدة في حين ظل (يحي) يتتبعه بنظره في صمت حتى غادر، فضحك عزت قائلًا:

- لا لوم على الرجل يا (يحي) فأنت من طلب منه ذلك، ولكن أخبرني ما سبب مجيئك الليلة باكرا؟
- هناك فأر في غرفتي يا (عزت).
- وماذا في ذلك؟ لما لم تقتله؟!

هنا أحس (يحي) أن رجولته أصبحت على المحك وكان عليه إنقاذها وحفظ ماء وجهه، فاستطرد قائلًا:

- المشكلة أن هذا اللعين سريع الحركة بينما الغرفة مليئة بالأساس. فكيف لي أن أمسك به؟!

محاولا بذلك الادعاء بأن كل مشكلته تكمن في عدم استطاعته الإمساك بالفأر تعيس الحظ، الذي دخل بقدميه إلى عرين الأسد! وفي أثناء حديثة كان (عزت) يمعن فيه النظر وما أن انتهى من كلامه حتى بادره بقوله:

- أنت تخشى الفئران يا (يحي).

سكت (يحي) هنية قبل أن ينطلق (عزت) في الضحك الهستيري مما جعله يتلفت من حوله قائلًا:

- اصمت يا (عزت). لا داعي أن تلفت الأنظار إلينا بهذا الشكل. نعم أنا أشمئز حقًا من هذا الحيوان لدرجة الموت، وتقريبًا أنه الشيء الوحيد الذي أخاف مواجهته!

قال عزت محاولا كتم ضحكه:

- دعك من هذا، بما أنك قد أتيت فلتكمل باقي حكايتك.
- لا. فعليَّ الذهاب الآن وليكن موعدنا كالمعتاد.

وهم (يحي) بالقيام ومغادرة المقهى إلاَّ أن (عزت) أمسك بيده واضعًا يده الأخرى في جيب سرواله ليخرجه ناصع البياض معلنًا بذلك إفلاسه التام، فابتسم (يحي) ثم وضع بضعة جنيهات على الطاولة ثمن كوبين السحلب وغادر بعدها عائدًا إلى المنزل.

وعند وصوله وجد جميع من في المنزل قد أخلدوا للنوم، فصعد إلى غرفته وفتح بابها موجهًا بصره إلى المصيدة التي نصبها بجانب الدولاب

ليجد إحدى الفتاتين تجلس بجوارها تداعب الفأر الذي أمسكت به المصيدة بالفعل، بينما الأخرى تقف أمام أمها الجالسة على المقعد أسفل النافذة، اقترب (يحي) من المصيدة في حزر ليجده فأرًا منزليا متواضع الحجم، فمد يده حاملًا المصيدة من الجزء البارز المثبت في بابها الموصد متجها بها إلى الطابق السفلي يملأ قلبه الريبة والتوتر محاولًا كبح ذلك الشعور بالإغماء والغثيان، وبعد أن وضع المصيدة أسفل الدرج لحين استيقاظ أمه في الصباح للتخلص منه بمعرفتها، عاد إلى غرفته ليجد الفتاة التي كانت تداعب الفأر قد ذهبت لتجلس هي الأخرى بجوار أمها، فتوجه إلى سريره واندثر تحت غطاءه ليغط في نوم عميق.

وفي الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل استيقظ على صوت المنبه فقام وبدل ملابسه ليخرج من الغرفة إلى الطابق السفلي، وقبل أن يغادر المنزل اتجه إلى أسفل الدرج حيث وضع المصيدة، تأكد أن بابها محكم الإغلاق، ووجد أن الفأر قد أكل ثمرة الطماطم عن آخرها! لمح دلو كبير أسفل الدرج فأخذه وملأه بالمياه ثم أغرق به المصيدة بالفأر، ودون أن ينتظر مشاهدة ذلك المشهد المروع توجه إلى

الباب ليخرج من المنزل قاصدًا تلك المقهى، ليجد (عزت) جالسًا في انتظاره على نفس الطاولة هناك. حيث استقبله بابتسامة قائلًا:

- عودًا حميدًا يا صديقي، أخبرني ماذا فعلت مع الفأر؟
- لا شيء. نصبت له مصيدة وضعت بها ثمرة طماطم طازجة حمراء فاقع لونها لأغريه بها. وقد أمسكت به المصيدة في نهاية الأمر.
- حمراء فاقع لونها! ألا تعلم يا (يحي) بأن الفأر لا يرى من الأساس؟!
- لا. ولكني أعلم أن ذلك الفأر اللعين قد أكل ثمرة الطماطم كلها، كأنه أراد بذلك الانتقام مني وخراب بيتي قبل موته!

ضحك (عزت) من قوله قبل أن يكمل (يحي) حديثه متسائلًا:

- أيكون الفأر قد أكل الطماطم لإلحاق الضرر بنا بالفعل يا (عزت)؟ أيملك تلك الشخصية المقاتلة التي تجعله حريصًا على إيلام قاتله وإلحاق الضرر به حتى اللحظة الأخيرة في حياته، وحتى عندما يوقن بالهلاك؟ أيكون الفأر أفضل منا نحن المستسلمين لجلادينا اليائسين من الفعل؟! أم يكون قد نفض اليأس عن نفسه وامتلك الأمل في النجاة حتى النهاية؟ حينها سيحتاج إلى كل قوته وطاقته

للمحاولة والعمل، وسيجد في ثمرة الطماطم وسيلة للحصول على تلك القوة.. أيكون حقًا واعيًا أن عليه العمل وفقط، أما النتائج فلا يملكها ولا يملك إلاَّ أن يسعى إليها؟ أيكون قد مات راضيًّا عن نفسه؟ أيكون الفأر قد مات مؤمنًا أكثر مني ومنك يا (عزت)؟

فقال (عزت):

- ومن قال بأن الفأر هو ذاك المقاتل يا (يحيى)؟ تتراوح أعمار الفئران حول العامين، وبمقارنة هذا بأعمارنا نحن البشر التي تدور حول الستين عاما، نجد أن اليوم عندنا بثلاثين يومًا بالنسبة للفأر، والليلة بثلاثين ليلة. أي أن الفأر قضى فعليًا داخل المصيدة ثلاثين ليلة بمقاييسه هو، فمن قال إنه قاتل ثلاثين ليلة؟ لم لا يكون الفأر قد قاتل ليلة أو ليلتين، تعب ليلة أو ليلتين، يئس ليلة أو ليلتين، ثم تعايش؟ لم لا يكون قد بلغ منه اليأس مداه فألف المصيدة؟ لم لا يكون مع تتابع الليالي عليه قد نسى كيف دخل إليها ابتداءً؟ لم لا يكون قد تأقلم على أنها هي العالم، وأن حدودها هي الحقيقة؟ إن كان الفأر فكر هكذا فبالتأكيد سيفعل ما فعل بالضبط، وجد أمامه طعاما فأكل، وقطعًا لو وجد أمامه شرابًا لشرب، ولو كانت

معه فأرة داخل المصيدة لتناكحا وتناسلا، ولقضي باقي الليالي يداعب فأرته، ويرعى صغاره، وينشغل بتوفير طعامهم وشرابهم!

تساءل (يحي) مرة أخرى:

- أنكون نحن هذا الفأر الأخير يا (عزت)؟ أنكون قد دخلنا بأرجلنا إلى مصائدنا الخاصة سعيًا وراء ثمرة الطماطم؟ أنكون قد طال علينا الأمد فنسينا أننا داخل مصيدة؟ أتتوالى علينا الليالي ونحن نفرح ونحزن، نرضى ونغضب، دون أن ندري أننا نعيش بالفعل ليلتنا الأخيرة في واقع سيد خفي خارج المصيدة، ينام الآن منتظرًا الصباح ليقتلنا، ويبدأ مع المصيدة ليلة جديدة؟

ساد الصمت لعدة دقائق قبل أن يقطعه (عزت) قائلًا:

- دعك من أمر ذلك الفأر وأبدأ في قص حكايتك.

أمسك (يحي) بكوب السحلب الذي وضعه (سمير) أمامه على المنضدة فور وصوله، رشف منه رشفة، ثم أعاده من جديد ليأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يبدأ في قص حكايته.

***

لقد مضت عدة أعوام لا أتذكر من أحداثها أي شيء وكأنني لم أعيشها من الأساس، فتلك هي مدرستي الإعدادية التي أريتك إياها حين أمر عليها أنظر لها في حيرة وتحسر، لقد أمضيت فيها ثلاث أعوام لا أذكرها منها شيء، ولا أذكر كيف وأين اختفى صديقي طفولتي (بكر).

وذات يوم وفى طريق عودتي إلى المنزل رأيت ذلك الملعون يهرول ممسكًا بفكيه فردة حذاء لأحدهم، حينها لاحظت شيئًا غريبًا جعلني أتسمر مكاني لبعض الوقت! لقد أحسست بأن الكلب كان يبتسم أو يضحك! فقلت في نفسي هل فقدت عقلي أخيرًا؟! مضيت في طريقي بعدما نفضت عن مخيلتي ذلك الإحساس الغريب، وحين دخلت إلى المنزل كان أحدهم يصرخ في عصبية مفرطة قائلًا:

- أقسم أني سأقتله.. أقسم أني لن أفلته.. أقسم.. وإلخ.

لقد كان هذا (عم جابر) ذلك الرجل الطيب الودود الذي أخبرتك عنه، لا. لا. تنظر إليَّ هكذا يا (عزت) فقد كان هناك خطب ما غير الذي دار في مخيلتك، فأنا أحب عم (جابر) كثيرًا كما أخبرتك وكذلك لم أعد حينها بذلك الشيطان الصغير كما في الماضي، لقد كبرت وأصبحت

شيطانا كبيرًا حينها، ولم تعد هذه الأفعال الصبيانية تليق بي! ولكن كان هناك شيطان آخر في المنزل هو من يتولى مثل هذه الأمور.

توجه إلى أبي فور رؤيته لي قائلًا:

- ابحث عن هذا الملعون في الحال وأحضر الحذاء قبل أن يمزقه فإن عمك (جابر) سوف يفضحنا في الحي كله.

فذهبت مسرعًا حيث أعرف أين أجده، وفور رؤيته لي أخذ في النباح المتصل، وهذا يعني أنه معترض، ولكني لم أبالي به وانقضضت عليه منتزعًا الحذاء لأجده قد مزقه بالفعل! فقلت في حنق:

- أخ.. فلتختفي أيها الأحمق عن الأنظار فإن لم يقتلك عم (جابر) فسيقتلك أبي حتمًا.

ثم أخذت الحذاء وهممت بالانصراف حينها أخذ الكلب في النباح المتقطع، وهذا معناه أن ذلك الملعون يسبني! لذا كنت أرد عليه كل نبحه بقولي:

- هو أنت.. هو أنت..

وتذكرت حينها يوم أن وجدنا هذا الكلب أنا و(بكر). وتذكرت قوله لي:

- وما ظنك بكلب يربيه شيطان مثلك، ماذا عساه أن يصبح غير كلبًا ملعونًا؟

رحم الله أيامك أيها الصديق الكئيب، فلو كان متواجدًا معي وشاهد بعينه ما أصبح عليه هذا الكلب لقرأ علينا آية الكرسي وأحرقني أنا وهذا (الملعون) في الحال، فقد كان الكلب لديه صفة مشابهة لصفة (عبده) لص الساندويتشات في المدرسة الابتدائية، لكن الكلب هنا سارقًا للأحذية، وليست كل الأحذية، فقط أحذية الضيوف، ولم يكن من عادته أن يمزقها بل كان يحتفظ بها، بخلاف حذاء عم (جابر) بالطبع، فكان بينهما ثأر وحساب يسويه معه، فعم (جابر) ضيفًا ذو خبرة قديمة ومخضرم، فكان فور دخوله منزلنا يتأبط حذاءه ولا يفلته، وأتذكر أنه في أحد المرات جاء لزيارة أبي فكان يجلس بجواره ممسكًا بحذائه كعادته، وكانا يتحدثان في أمر هام، بينما أخذ الكلب يغدو ذهابًا وإيابًا خارج حجرة الجلوس كالمجنون!

وكان عم (جابر) يختلس النظر إليه من حين لآخر، وفجأة قطع حديثه الهام هذا مع أبي لينظر إلى الكلب وبابتسامة ماكرة وخبيثة قال له:

- أرح نفسك فلن أفلته من يدي.

فأمطره الكلب حينها بوابل من النباح المتقطع والذي استقبله عم (جابر) بابتسامة ساذجة تجهل حقيقة ما تتلقاه من سباب وإهانات، فلم يكن أحد يعلم بحقيقة النباح المتقطع هذا غيري؛ فلو علم أبي فحواه لقتله وقتلني معه منذ زمن.

تركت أبي في محاولته لتهدئة عم (جابر) واسترضائه وتوجهت إلى حجرتي وحين اقتربت منها. تعالت أصوات وزمجرة كلاب الجحيم تلك، فقد أصبحت ترافقني وتقيم معي في حجرتي، كما أن أصواتهم قد أصبحت مسموعة للجميع، لذا لا يقرب أحد هذه الغرفة مطلقًا، فقد تغير الوضع كثيرًا في ذلك الحين، ولم يعد يزعجني تواجد ورؤية هذه الكلاب فهي هنا لحراستي على أي حال، فهناك العديد من الكيانات الأخرى تسعى للنيل مني، ولولا وجود هذه الكلاب لكنت الآن في عتاد الموتى.

وأشد هذه الكيانات خطورة وإصرارًا على النيل مني تلك التي على هيئة الجمل، فأتذكر أن أول مرة هاجمني فيها هذا الكيان كان حين أتممت سن البلوغ مباشرةً، فكان هذا اليوم بمثابة انتقاله نوعية للأحداث بالنسبة لي ولكل من حولي، لقد كان جملًا هائجًا، عظيم

الهيئة، يصدر صوتًا كالرغاء أو الهدير عالي وشديد النبرة، فإن كانت أصوات تلك الكلاب قد انخلع لها قلبي فيما مضى، فصوت هذا الكيان قد انخلعت له روحي.

لقد ركض هذا الجمل نحوي فاتحًا فاه مصدر هذا الصوت المرعب كما لو كان وحشًا من وحوش الأساطير القديمة، وكنت حينها حر الحركة، فلذت بالفرار والنجاة بروحي، وظل هذا الجمل يلاحقني حتى كاد أن يدركني ويفتك بي لولا هذه الكلاب، فقد رأيتها تقابلني مسرعة ومتهيأة للقتال، حيث هاجمت هذا الكيان الهائج بلا تردد ومن ثَمَّ أنقذتني من موت مؤكد، فكانت هذه هي المرة الأولى التي أستبشر فيها لرؤية هذه الكلاب.

ومن بعيد رأيت العديد من هذه الجمال الهائجة المهيبة تركض نحوي مصدرة هذا الصوت المرعب، وحينما هممت بالفرار من جديد، وجدت حركتي قد قيدت وكان هذا متزامنا مع ظهور الشيخ الأشيب فهذه علامته. لقد ظهر ومن خلفه الظلام، حيث خرج من هذا الظلام المئات من هذه الكلاب تركض مباشرةً نحو تلك الوحوش الغاضبة. كانت ملحمة مرعبة شاهدتها للحظات قبل أن يسحبني شيئًا ما بقوة وعنف

من داخل ذلك الظلام، فغلت وفارت الدماء في رأسي وأحسست وكأن روحي تنتزع مني نزعًا، وكاد قلبي أن يتوقف عن الخفقان، فأطلقت صرخة مدوية أيقظت الجميع وأصابتهم بالهلع والذعر.

لم يستيقظ جميع من في المنزل فقط، بل استيقظ الجيران أيضا وتعالت أصوات نباح الكلاب التي تجمعت من جميع الأحياء المجاورة أمام منزلنا في هياج استنفر الجميع وأخرجهم من منازلهم مذعورين، ولم أستطع هذه المرة أن أخفي حالة الفزع والخوف التي تملكتني عمن حولي.

ومنذ ذلك اليوم وأصبحت غرفتي محرمة على الجميع دوني، فبمجرد الاقتراب من محيطها تتعالى أصوات نذير تلك الكلاب.

لقد حاول الجميع حينها مساعدتي دون جدوى، حيث أحضر لي أبي مجموعة من المشايخ المعالجين، فسقط أحدهم في حالة صرع فور دخولهم المنزل ولاذ البقية بالفرار، وأعلنوا عدم قدرتهم على مواجهة هذا الشيء المجهول! وحين تملك اليأس من الجميع اضطروا للاستعانة بأحد هؤلاء الرجال الملاعين من الدجالين، وحين أتوا به وقف أمام المنزل لبعض الوقت ثم انصرف رافضًا الدخول دون أن يوضح سببًا لذلك! حتى حين ذهبوا بي إلى منزله انتفض من مكانه فور دخولي عليه

الحجرة وكأنني الموت جاء ليطلبه، فأمرني بسرعة مغادرة بيته دون أن يوضح أيضًا سببًا لذلك!

لقد أصبحت حينها منبوذًا بين الجميع، فالكل أصبح يتجنب حتى النظر إلى وجهي، وقد هجرني الأصحاب والأحباب، وتدهورت حالتي كثيرًا حيث ضعفت ذاكرتي لدرجة أني بت أحمل في جيبي ورقة مكتوب فيها أسماء عائلتي وكل من أتعامل معهم من حولي، فأطلع عليها كل يوم كي لا أنسى أسماءهم!

وأما بالنسبة للدراسة فكانت هذه هي السنة الرابعة لي على التوالي في الصف الثاني الثانوي، حيث بدأت في فقدان الذاكرة حين وصلت لهذه المرحلة من التعليم، ولم أعد ألتحق بأي من المدارس العامة أو الخاصة، فلم يعد الوضع يسمح بذلك، فبت أدرس في المنزل.

استقر الوضع على هذا الحال وتعايشت وتعايش من حولي معه، أصبحت حينها بلا مستقبل بل وبلا حياة، وفى كل ليلة أذهب فيها للنوم كنت أتجهز لعلها تكون الأخيرة، لم أكن أملك تفسيرًا لكل ما يحدث لي، ولكني عزمت على فعل أمرًا ما. ففي كل ليلة كنت أرى في نومي ذلك العقار رقم (١٠١).

إنه العقار الأشهر في بلدتي، فقد تداول الناس عنه العديد من القصص والحكايات المرعبة، وهو عمارة سكنية كان يسكن في إحدى شققها امرأة أم لطفلتين، وقيل بأنها قتلت طفلتيها ثم قتلت نفسها حين هجرها زوجها، ومنذ ذلك الحين يسمع الناس صراخ وبكاء الطفلتين والمرأة عند منتصف اليل من كل ليلة. وقد أسفر عن ذلك هجرة جميع السكان من العقار ليصبح العقار مهجورًا إلى الآن ولا يقربه أحد.

كنت أرى ذلك العقار بوضوح، بل وكنت أرى تلك المرأة وطفلتيها واقفين عند إحدى النوافذ المطلة على الطريق ينظرن إليَّ وكأنهن يردن إخباري بشيء ما، ولكن كانت هذه الجمال اللعينة لا تمهلني أبدًا، ففي كل مرة أردت التحقق فيها من أمرهن كانت تظهر فجأة من حيث لا أدري وتبدأ في ملاحقتي، ولذلك قررت أن أزور ذلك العقار، فكنت أظن حينها أني ربما أجد في هذا العقار خلاصي وتنتهي معاناتي، أو حتى أجد فيه هلاكي وتنتهي أيضا معاناتي.

***

وكان مساء الأربعاء حين جاءني صديقي الوحيد (عرفة) والذي صراحة لا أتذكر أين ومتى صادقته؟! ولماذا لم يهجرني إلى الآن كما فعل بقية الأصدقاء؟

فإنَّ كل ما أعرفه عنه أن اسمه مدون في الورقة التي أحملها في جيبي وأمامه علامة استفهام؟ على أي حال أنا لم أعد أشغل بالى بتذكر أي شيء حينها، فقد اعتدت على مقابلة أحدهم لي بالترحاب والتهليل من حين لآخر في أثناء سيري في الطرقات فأقابله بالمثل دون أن أعرف من هو وأين تعرفت عليه؟

و(عرفة) كان طالب جامعي ولابد أنه كان أحد أصدقاء هذه الفترة الممحاة تمامًا من سجلات ذاكرتي، وقد اعتاد أن يأتيني كل ليلة ليذاكر معي، كما كانت هذه هي عادته معي فيما مضى على حد قوله، وكان يسعدني قدومه على أي حال فهو كل ما تبقى لي من الأصدقاء حينها.

وفى يوم أتى للمذاكرة معي، وكالعادة كنت أمسك بالكتاب محاولًا ربط الكلمة بالكلمة التي تسبقها والتي تليها لعلي أخرج من ذلك بجملة مفيدة أنير بها ظلمات عقلي ولكن دون جدوى! بينما هذا الملعون

يقلب الصفحة تلو الآخر أمامي دون توقف. ثم توقف للحظة عن تقليب الصفحات قائلًا:

- هل لي بسؤال يا (يحي)؟
- على الرحب والسعة تفضل!
- لماذا أرى في عينك نظرة غريبة ومخيفة إلى هذا الحد كلما نظرت إليها؟! حتى أني لا أجرؤ على النظر إليها لفترة طويلة في بعض الأحيان!

فرددت عليه بابتسامة مصطنعة قائلًا:

- إذًا لا تنظر إليها يا (عرفة) وينتهي الأمر!

ثم عاود تقليب الصفحات قبل أن يتوقف ويعاود السؤال من جديد قائلًا:

- هل صحيح أنك متزوج من إحدى الجنيات الحسناوات؟

وضعت الكتاب من يدي ونظرت له في حنق سائلًا:

- ومن أين لك بهذا القول؟
- الجميع يتحدث عن الأمر. يقولون بأنها تسكن غرفتك ولا تدع أحدًا غيرك يقربها! أهذا صحيح حقًا؟

حينها قلت في نفسي:

- والآن حان وقت رحيلك أيها المتطفل الوقح.

وبابتسامة زائفة رددت عليه سائلًا:

- وهل يشغلك الأمر لهذا الحد يا (عرفة)؟
- بالطبع نعم.
- وعن أي شيء تريد أن تسأل بالتحديد؟
- عن هيأتها وشكلها.. كيف تكون؟ وكيف تتعامل معها؟
- يمكنك أن تنظر إليها بجانبك وترى بنفسك كيف تكون.

هنا اتسعت عيناه ذعرًا، وتصلب جسده، وتصبب العرق من جبينه، فقلت:

- هدئ من روعك يا (عرفة) فلا داعي لكل هذا الزعر.

فبدت ابتسامة طمأنينة ترتسم على قسمات وجهه لظنه أنى أداعبه. ثم أردفت قائلًا:

- فأنت لا يمكنك رؤيتها بينما هي تحدق بك الأن.

فعاد لحالته الأولى وزاد عليها اصفرار لون بشرته وشحوبها. فاسترسلت قائلًا:

- أنا لا أعرف حقًا سر اهتمامها بك لهذا الحد؟! فكلما أتيت إلى هنا لا تبرح جوارك تتطلع في قسمات وجهك! فقد بدأت أغار منك بالفعل يا صديقي.

كادت عيناه أن تدمع. حيث قال في ذعر وبكلمات متلعثمة ومرتبكة:

- ما هذا الصوت؟
- أي صوت يا (عرفة)؟
- كأن أحدًا ينادى على من بعيد!
- أحقًا ما تقول؟!
- نعم. أقسم أني سمعت ذلك، بل وأسمعه الآن بوضوح!

فقلت له في هلع:

- لا تصغي يا (عرفة) إلى ذلك الصوت وإياك أن تجب على هذا النداء.

وهنا سقطت بعض القطرات من عينه رغمًا عنه. فانتفضت من مكاني واقفًا وقد ملأني التوتر والقلق حيث قلت له:

- قم الآن وسارع بالخروج في الحال من هنا وإياك والعودة.

فهب واقفًا كالملسوع، وقبل أن يغادر بادرته قائلًا:

- (عرفة) عد إلى منزلك في الحال وإياك أن تجب على هذا النداء مهما حدث، وفى الطريق إياك والالتفات خلفك، أو التوقف للتحدث مع أحدهم، إنهم يطلبونك يا صديقي ولا أعرف السبب وراء ذلك! (عرفة) حين عودتك إلى المنزل لا تتحدث مع أحد من أهل بيتك حتى يطلع الصباح، وإن جاءك أحدهم ليحدثك فانظر إلى عيناه جيدًا، فإن لاحظت فيهما شيئًا غريبًا فلا تجبه والتزم الصمت حتى يرحل، وإن اقترب منك وحاول ملامستك دافع عن نفسك يا (عرفة). كان الله في عونك يا صديقي.

وبخطى سريعة ومرتبكة أسرع (عرفة) بالانصراف، وما أن ابتعد لبضع خطوات حتى عاودت مناداته من جديد، فأخذ ينهب الأرض نهبًا حتى توارى عن نظري. كنت أنا من ينادي عليه من البداية، فأنا أجيد موهبة التحدث من خلال بطني دون أن أفتح فمي، وما من موهبة شيطانية كهذه إلاَّ وكنت أجيدها حق الإجادة. وبعد أن تخلصت

حينها من آخر الأصدقاء، أصبح بإمكاني أن أذهب في ذلك الغد لألقى حتفي بسلام دون أن يفتقدني أحدهم.

وفي صباح يوم الخميس حيث عقدت النية على اقتحام ذلك العقار، كان على أن أختار الوقت المناسب حتى لا يراني أحدهم عند الدخول، فكان أمامي خيارين. إما أن أذهب وقت الظهيرة حيث تكاد الشوارع أن تخلوا من المارة في هذا التوقيت لشدة الحر، أو أن أذهب في ساعة متأخرة من الليل، فوقع اختياري على وقت الظهيرة، فكونى لم يعد لدي ما أخسره لا يعني أن أقسوا على نفسي لهذا الحد!

وكنت متواجدًا في غرفتي حين تعالت أصوات زمجرة الكلاب من حولي لاقتراب أحدهم من الغرفة أكثر من اللازم. وكانت هذه أمي التي توقفت على مقربة من باب حجرتي ودون أن تغامر بالاقتراب أكثر من ذلك قالت في توجس:

- هيا يا (يحي) فقد انتهينا من تناول الإفطار وأنت لم تأتِ بعد!
- حاضر يا أمي أنا قادم في الحال.
- لقد قلت ذلك منذ ساعة تقريبًا ولم تبرح مكانك بعد!

- منذ ساعة؟! لم أكن أنا يا أمي إذًا من أجابك في المرة السابقة.

وهنا سمعت صوتا لخطوات مرتبكة تبتعد مسرعة عن الغرفة. فقلت بصوت مرتفع محدثًا صاحب تلك الخطوات:

- تمهلي قليلًا يا أمي، فأنتِ لم تتعافِ بعد من سقطة الأسبوع الماضي!

ثم أسرعت بمغادرة الغرفة والنزول للاطمئنان عليها، فوجدتها جالسة على المنضدة بجوار الطعام تمعن النظر فيه دون أن تتكلم، فقلت لها مازحًا:

- لا أعرف حقًا يا أمي متى تعتادين الأمر؟!

لم تتفاعل أمي طبعًا مع هذ المزاح السخيف، فجلست أتناول فطوري وفي هذه الأثناء سمعت أحدهم ينادى عليَّ من الخارج، فخرجت لأجده (هشام) الأخ الأكبر لـ (عرفة) وقد جاء يسأل عنه قائلًا:

- هل بات (عرفة) عندك البارحة؟
- لا. فقد كان عندي البارحة وغادر عائدًا إلى المنزل، هل حدث له مكروه ما؟

- المجنون. لكم أباه على وجهه فور عودته إلى المنزل ليلة البارحة دون سبب! وقد طرده أبي من المنزل ونحن الآن نبحث عنه.
- أوقد فعلها حقا؟!
- نعم. لقد فعلها! أتصدق هذا؟!
- ولم لا؟ (فعرفة) أحمق على أي حال.

نظر إليَّ في دهشة متفاجئ من ردة فعلي، فبادرته قائلًا:

- «أنا فقط أمزح!
- وهل تعرف أين يمكنني أن أجده الآن؟
- للأسف لا.

فشكرني وانصرف يبحث عن أخاه. وفى الوقت المحدد من ظهيرة ذلك اليوم استجمعت عزيمتي وغادرت المنزل مباشرةً في اتجاه العقار رقم (١٠١)، حيث لن أدع لنفسي مجالًا للخوف والتردد، فقد سئمت الحياة على هذا النحو ولا بد لي من خلاص.

كان الشارع خالي تمامًا من المارة، غير أن هناك كشك صغير مفتوح في الجهة المقابلة للعقار، ولكني لم أتردد حيث لن تتاح لي ظروف أو

توقيت أفضل من هذا. فدلفت مسرعًا إلى مدخل العقار دون أن ألتفت حولي، ولكن يبدو أن صاحب الكشك قد رآني حينها، حيث أخذ يصيح في قائلًا:

- ارجع أيها الفتى. ارجع أيها الأحمق!

فقال أحدهم:

- ما الأمر يا عم (مصطفى)؟
- لقد دلف أحدهم داخل العقار وحاولت تحذيره ومنعه لكنه لم يلتفت لي!
- وهل أنت متأكد أنه كان شخصًا ما؟
- بالطبع. وهل تظنني أهذي أم تراني قد عميت؟
- لم أقصد الإساءة يا عم (مصطفي)! لكن ما من أحد في البلدة إلاَّ ويعرف بأمر هذا العقار، ومن المستحيل أن يغامر أحدهم بالدخول هناك! فاستعذ بالله وارجع إلى الكشك لعلهم (اللهم احفظنا) يتلاعبون بك ويستدرجونك للداخل
- أعوذ بالله. أعوذ بالله.

أخذت في الصعود على درج السلم متسائلًا في نفسي. أكانت النافذة التي كنت أراهم ينظرون إليَّ منها في الدور الرابع أم الخامس؟

ولكن حيرتي لم تطل كثيرًا حيث وجدت باب الشقة مفتوحًا بالفعل على مصرعيه في الدور الرابع وكانت الأم وطفلتيها في استقبالي عند مدخل الباب. وقفت للحظات حيث هالني الموقف وانتابني الخوف والتردد، فلم تكن هيأتهم هكذا حين كنت أراهم في نومي! لقد كنت أرى امرأة وطفلتين عاديين، ولكن ما رأيته أمام عيني حينها شيء آخر مختلف تماما!

فالطفلتين كانتا منتفختا الوجه ويميل لونهما للون الأزرق، بينما شفتاهما لونهما أزرق صريح، فيبدو أن المرأة قامت بقتلهما غرقا، بينما المرأة نفسها فكانت الدماء تسيل من معصمها بغزارة، فعلى ما يبدو أنها هكذا قتلت نفسها أيضًا. كانت بشرتها شاحبة جدًا، بينما الدموع تنهمر من عيناها وهي تنظر إليَّ باسمة مستبشرة حيث قالت:

- هلم إلينا فقد طال انتظارنا لك كثيرًا يا (يحي)!

فتقدمت نحوهن بخطى ثابتة بعد أن حدثت نفسي بأنه لم يعد لدي ما أخسره، وأني جئت إلى هنا بإرادتي بحثًا عن الخلاص أيًّا كان.

دلفت إلى داخل الشقة بينما المرأة وطفلتيها يتقدمنني بخطوات حيث أغلق الباب فور دخولي. وجلست المرأة على أريكة كانت موضوعة في الصالة، وجلست بدوري على أحد المقاعد أمامها، بينما الطفلتين فقد استقرتا تحت قدماي مباشرة! حيث جلستا على الأرض ينظرن إليَّ في شوق وحنين غير مفهوم!

وكذلك المرأة لم ترفع بصرها عني مبتسمة بينما الدموع لا تزال تنهمر من عيناها بلا توقف! فحاولت أن أتغاضى عن أمر الطفلتين المستقرتان عند قدماي وتوجهت بحديثي لتلك المرأة محاولًا أن أبدو متماسكًا قدر الإمكان:

- أظن أن هناك ما تردن إخباري به ولهذا جئت إلى هنا!.. فما خطبكن؟
- نريد إخبارك بأننا في حاجة إليك، فنحن هنا منذ زمن طويل، بائسين مستوحشين بلا زائر ولا أنيس، وقد تعلق بك أطفالي فور رؤيتهما لك، وكذلك أنا فقد تعلقت بك كثيرًا وأريدك زوجًا لي وأبًا لبناتي.

- وكيف يكون هذا؟! فأنا لا أنتمي لعالمكم وأظنك تعلمين ذلك!
- بل أنت الذي لا تعلم شيئًا عن نفسك يا (يحي)
- وما هو الذي لا أعلمه عن نفسي وتعلميه أنت؟! أخبريني إذًا بما لديكِ.
- أنت تنتمي إلى العالمين. فأنت تلج إلى عالمنا كل ليلة لأنك تختلف عن أقرانك يا (يحي)، فأنت بمثابة حلقة وصل بين العالمين، لذلك هم يسعون في طلبك.
- ومن يكونوا هم؟ وماذا يريدون منى؟
- مردة الجن وحراس الكنوز قد أزعجهم ولوجك إلي عالمنا، وخاصة حين سعت الشياطين خلفك، وهذا لأن كنوزهم بل وعالمهم بالكلية سيكون مستباحًا لك فور إبرامك للعهد، ولن يستطيعوا إيقافك حينها، لذلك فهم يسعون لقتلك. بينما الشياطين من بني جنسنا يريدونك سفيرًا لهم لعالم البشر، وهذا لأنك تختلف عن أقرانك من بني جنسك فقليل جدًا على مر العصور من هم على شاكلتك.
- وهل لي في ذلك من خلاص؟
- لا أعلم لك خلاصا من هذا.

- الآن فهمت. أشكرك وأعدك بالمداومة على زيارتكن من حين لآخر ردًا لهذا الجميل.

وهممت بالوقف ومغادرة المكان إلاَّ أن الطفلتين أمسكتا بقدامي، فأحسست ببرودة شديدة تسري في جسدي رغم شدة حر ذلك اليوم! وقالت المرأة:

- أنت لن تتركنا لأي مكان يا (يحي)، فأنت الآن لنا وستظل معنا هنا للأبد.

حينها سمعت صوت زمجرة الكلاب قادمة من إحدى الغرف، فأسرعتا الطفلتين لتحتميا بأمهما، حيث أحاطت بهما في ذعر وانزوت في أحد الأركان من الصالة وتعالت صرخاتهن بمجرد رؤيتهن للكلاب تخرج مكشره عن أنيابها.

- ألم أقل لك يا عم (مصطفى)؟
- أعوذ بالله، إنها المرة الأولى التي يحدث فيها الأمر على هذا النحو وفى وضح النهار!
- هيا سوف أساعدك في غلق الكشك وعد إلى بيتك الآن.
- هيا يا بنى. هيا.

- وأنتِ أيتها الفتاة. ادخلي وأغلقي عليك النافذة بسرعة.

قمت من مكاني مسرعًا للوقوف حائلًا بين الكلاب الغاضبة وبين تلك المرأة وطفلتيها، فقد رق قلبي وانفطر لهلعهن وصراخهن، فمهما يكون كنه هذه الكيانات إلاَّ أنني كنت أمام هلع وصرخات أم وأطفالها فلم أتحمل ذلك.

فبدأت أشعر بالأثقال والقيود تتملكني! فعرفت أنه قد أتى، فهذه هي علامته كما تعلم، لقد ظهر عند أحد الأركان هناك، وسمعت صوتًا في أذني يشبه حفيف الثعبان، فعرفت حينها سر تلك القيود اللعينة، ثعبان ضخم يرافق ذلك الشيخ الأشيب وهو من يقيد حركتي في كل مرة دون أن تراه عيني.

وقد أحكم الثعبان قبضته عليَّ وشلَّ حركتي تمامًا، وبدأت الكلاب في التقدم من جديد باتجاه الأم وطفلتيها المستمرين في الصراخ، فجاهدت حتى فتحت فمي لتخرج منه الكلمات ثقيلة حيث قلت:

- دعوهن وشأنهن وإلاَّ فلا عهد بيني وبينكم.

فتوقف حينها الكلبين عن الزحف، وفُتح باب الشقة على مصراعيه من جديد، وأفلتني الثعبان من قبضته، ففهمت أن عليَّ مغادرة المكان. قمت وأنا أشعر بدوار وضغط رهيب على رأسي فقد كان الثعبان اللعين يعصرني عصرًا، توجهت في تثاقل إلى باب الشقة والذي قد أغلق خلفي فور خروجي منه، حينها توقف صراخ الأم وطفلتيها، فنزلت إلى الشارع حيث وجدت الكشك قد أغلق وكذلك كافة النوافذ المطلة على الشارع، وقد خلى الشارع تمامًا من المارة، فأسرعت في الابتعاد قبل أن يراني أحدهم ويفتضح أمري.

كان الطريق إلي المنزل طويلًا جدًا في ذلك اليوم، وحين دخلت إلى المنزل كان هناك أحدهم يصرخ في عصبية مفرطة قائلًا:

- أقسم أني سأقتله، أقسم أني لن أفلته، أقسم.. إلخ.

فكان هذا عم (جابر) فقد فعلها به الملعون للمرة الثانية.

***

صعدت منهكًا إلى غرفتي وألقيت بنفسي على السرير من فرط الإجهاد، فقد كانت تجربة ذلك اليوم قاسية جدًا، حتى أني لم أكن أصدق أني قد خرجت منها حيًا أرزق، ولكن على الأقل أصبحت أعرف وأفهم ما يدور من حولي.

حينها سمعت طرقات على الباب، فنظرت ناحيته في تعجب، فلم يتجرأ أحد على الاقتراب من الغرفة إلى هذا الحد! ثم أين ذهبت تلك الكلاب؟!

اعتدلت في جلستي ثم قلت سائلًا:

- من بالخارج؟

فلم يجيبني أحد، غير أن تلك الطرقات عاودت من جديد! فقلت في توجس:

- «تفضل بالدخول»

وقد زالت دهشتي سريعًا حين وقعت عيني على عينه، فأنا أعرف تلك النظرة جيدًا وأعرف لمن تكون. تلك النظرة التي تخترق جسدي

وتوجعه. تلك الأعين العميقة شديدة السواد. إنه ذلك الأشيب، ولذلك لم تعترضه الكلاب.

اقترب منى وجلس بجواري تمامًا، في حين أن المفاجأة قد أربكتني وشلت تفكيري بل وحركتي. ولكني حينها تظاهرت بالثبات واللامبالاة، وقد أحسنت فعل ذلك.

وبصوت رخيم تحدث إليَّ قائلًا:

- كيف حالك بنى؟
- من أنت وماذا تريد؟
- لقد حان الوقت كي نأخذ منك العهد.
- أي عهد؟!
- العهد الذي يجعلك منا ونحن منك، فكن معنا تكن لك المنعة والقوة والسلطة والمال، وتكن بذلك سيدًا بين العالمين.
- عن أي منعة وعن أي قوة تتحدث؟! أنا لم يعد لي حياة فقد دمرتم حياتي وهجرني بسببكم الأصحاب والأحباب.

- أنت لا تحتاج لأحد يا (يحي) فالجميع هم من في حاجة إليك. ولولانا لخطفتك مردة الجن، وكنت من الأموات!
- لولا سعيكم ورائي لما سعوا هم لقتلي. ماذا تريدون منى؟
- نريدك معنا، سفيرًا بين العالمين، وسيطًا بيننا وبين أتباعنا من بني جنسك.
- ولماذا أنا بالذات؟! وما حاجتكم في أن يكون هناك وسيطًا من الأساس؟
- لأنه أنت بالذات من يصلح للأمر دون غيرك. فبنى جنسك محجوب عنهم عالمنا، واختراق تلك الحجب يتطلب بذل الكثير من الجهد والعناء والقيام بطقوس معينة وفى ظروف خاصة، أما أنت فتخترق تلك الحجب بالفعل! ولهذا أنت تراني وتسمعني بوضوح دون عناء. بل وتخترق ما هو أبعد من ذلك. وما تملكه من قدرة إنما هي هبة يهبها الابن الأكبر والمخلص الأعظم لمن يختارهم على مر العصور ليكونوا لنا عونا إلى حين خروجه إلينا ليقودنا بنفسه نحو التحرر والخلاص.
- التحرر والخلاص من ماذا؟!
- من العبودية ومن سطوة الإله.
- ألا تعلم على أي دين أكون؟!

- بلى أعلم أنك ولدت على هذا الدين ولم تختاره لنفسك، ولو ولدت على دين غيره لسرت تدين به!
- بل أنا أرتضيه لنفسي وأؤمن به حقا.
- لا تتعجل فأنت لا تعرف الحقيقة بعد، وبهذه القدرة التي وهبها إليك المخلص الأعظم ستعرف كل شيء، ولكن أولًا عليك معرفة كيف توظفها وتتحكم بها، وهذا ما سوف تتعلمه حين تنضم إلينا.
- سمعت بخبر سفهيكم هذا وأعلم أنه لا يملك أن يهب أو يمنع بذاته، فما لديه من قدرة إنما هي هبة من الإله وفتنه له ولمن يتبعه.

هنا قام من مكانه غاضبًا. وأحسست حينها بضيق شديد في صدري، وشعرت بحلول طاقة سلبية رهيبة قابضة للأنفاس تملأ أرجاء الغرفة كلها، ثم قال:

- أنت منا ونحن منك، وأنت لنا شئت أم أبيت.
- لا أحد يرغمني على ذلك، وإن كان ما لديَّ من قدرة وهبة من أحد كما تتدعي فليسلبها مني إذًا فلا حاجة لي فيها.
- أخشى أنك لا تملك خيارًا لهذا يا (يحي). سوف نأخذ منك العهد حين بلوغك سن الأربعين شئت أم أبيت ولحين..

هنا قاطعته قائلًا:

- ولحين سوف تتركونني وشأني لأستعيد حياتي. وأفكر في الأمر دون ضغوط.
- لك ما طلبت. وسيكون لنا ما نريده بعد حين.

ثم اتجه إلى باب الغرفة وغادرها.

لم يكن تحاوري ومجادلتي مع هذا الكيان بغية أن أهديه أو أقنعه بأمر ما فأنا كنت أعلم أنى أحاور شيطانًا من الأساس، بل كان ذلك تثبيتًا لنفسي أنا على ما أنا عليه. ولم يكن قولي له بأني سأفكر في الأمر وعدًا مني بذلك، إنما رأيت أن أظفر باليوم، وأن أدع شأن الغد للغد، لعله حين يأتي ذلك الغد أكون قد علمت ما ينبغي عليَّ فعله حياله، أو لعلي لا أدرك ذلك الغد من الأساس.

تغيرت الأوضاع بعد هذا اللقاء كثيرًا، فقد بدأت بالتعافي بعدما تخلصت من ذلك الضغط الرهيب بسبب مطاردة تلك الكيانات لي، إلاَّ أني ما زلت أرتقي وأتحرر من ذلك الجسد من حين لآخر، فهذا الأمر لم يكن لهم دخل فيه بل كانت تلك لعنتي الخاصة التي فتحت على أبواب

الجحيم من الأساس؛ ولكن يمكنني تحمل ذلك الأمر والتعايش معه، فعلى الأقل لم يعد هناك من يطاردني أو يسعى لقتلي.

كان جل همي هو استعادة حياتي من جديد، فكان على إصلاح كل ما أفسدته تلك الظروف، سواء من حيث إكمال مساري التعليمي، أو علاقتي الشخصية بكل من حولي، فلم أعد أريد أن أكون مميزًا وفريدًا بعد ذلك الحين، بل رغبت فقط أن أكون واحدًا من هؤلاء الناس وأن يكون لي حياة كما لهم حياة.

وبدأت بالفعل أستعيد حياتي شيئًا فشيء، فقد تمكنت من إكمال تعليمي بعد أن استعدت قدرتي على الحفظ والاستذكار، وقمت بتحويل مساري التعليمي من الثانوية العامة إلى التعليم الصناعي، وهذا لأني كنت قد استنفذت سنوات الإعادة المستحقة لي في الثانوية العامة.

ومن خلال التعليم الصناعي تمكنت من الالتحاق بإحدى الكليات التابعة لجامعة قناة السويس ببورسعيد، لأبدأ بذلك عهد جديد، بشخصية جديد ومختلفة تمامًا عن تلك الشخصية التي خلقتها وصنعتها

ظروف غريبة وغامضة. فقد بت شخصًا ودودًا يتسم بالمرح والتواضع وتقدير وحب الآخرين له. وربما بالبلاهة والسذاجة إن لزم الأمر.

***

الفصل الثالث
جولة داخل أروقة الحياة

في هذا اليوم كان (يحي) في مقابلة مع أحد العملاء في شركة ما بالقرب من حديقة الحيوان، انتهت المقابلة عند الساعة الثالثة عصرًا، وفي أثناء مروره بجانب سور الحديقة في طريق عودته أحنت نفسه لجولة داخل ذلك المكان الذي أحبه بصدق، والذي تربطه به ذكريات جميلة.

وللوهلة الأولى فور دخوله أحس أنه انتقل إلى بلد تضربه المجاعة! الحديقة تكاد تكون خاوية على عروشها من الزوار، والشجر فَقَدَ خضرته واكتسى بلون كالح، والعشب ذبل فعليًا هنا وهناك! بل الأدهى أنه وجد مساحة كبيرة من العشب قد جفت تمامًا وتصاعد منها الدخان، وكأن طائرة قد قصفتها في الليلة الماضية!

ولم تكن الحيوانات بأفضل حال على الإطلاق، فقد علاها كلها الخمول وأصابها الوهن، ولطخت القذارة أجسادها، وكان معظمها مستلقيا في مكانه غير راغب في الحركة، أو حتى غير قادر عليها! ومن كان يتحرك منها كان يتشمم الأرض وكأنه يبحث عما يسد به جوعه!

وحتى (قفص القرود) التي كانت وجهته الأولى عندما كان يأتي إلى الحديقة سابقًا، رآها تبعث على الكآبة وقد أصيبت قرودها على ما يبدو بالجرب، وفقدت مؤخراتها تمامًا ذلك اللون الأحمر الزاهي الذي كان يفجر السعادة في أعماقه عندما كان صغيرًا!

وأما الحراس فلم تكن هيئتهم بأحسن حال من هيئة حيواناتهم على الإطلاق! فقد تحولوا إلى متسولين يتنافسون على رواد الحديقة يكادون يخطفونهم لأقفاصهم كما يفعل الباعة الجائلون في الأسواق بعدما فقدوا منح الزوار وعطاياهم.

وعندما ذهب إلى بيت الأسود، رأى ملوك الغابة تقف محبوسة في أقفاص لا يتعدى الواحد منها متر ونصف في مترين، ولم تكن الأسود تتوقف للحظة واحدة عن الدوران حول نفسها في جنون، وكأنها

تبحث عن مخرج لما هي فيه، أو تبحث عن جوابًا لكيف انتهى بها الحال هكذا؟، أو لعلها جنت من فقد صغارها الذين نزعهم الحراس ليتربحوا بهم، فما تكاد تمر عشر ثوان إلاَّ ويأتيه أحدهم يعرض عليه أن يلتقط له صورة مع (شبل الأسد) مقابل عشرة جنيهات فقط!

انتقل بعدها إلى أقفاص الشمبانزي ليقف أمام أحدها، كان القرد سليل (كينج كونج) في قامة طفل في العاشرة من عمره، وكان يبدو من حجم رأسه الكبير وجلده الجاف المتشقق وفرائه الأجرب المتسخ، أن له سنوات وسنوات في هذا القفص!

كان حارسه يحاول مستميتًا أن يجمع حوله بعض الزوار من الأطفال ليحصل على عطاياهم، وقد ابتكر لذلك حيلته الخاصة؛ سأل طفلة صغيرة بعد أن وضعت في يده جنيهين عن اسمها فأجابته قائلة:

- (عَزَّة).

فالتفت إلى القرد وقال له بلهجة آمرة:

- بُوسَة لعزة.

ففوجئ (يحي) بالقرد يحرك شفتيه على شكل قبلة! فقال له الحارس:

- صقفة لعزة.

فصفق القرد بيديه، فرسم الحارس على وجهه ابتسامة مفتعلة، وقال له بصوت متمايل رقيع:

- ارقص لعزة.. من ورااا.

فحرك القرد مؤخرته قليلا، فأكمل الحارس ممعنًا في إضحاك عزة:

- من قداااام، من قدام يا ابن العبيطة.

فحرك القرد بطنه المنتفخة قليلًا! فضحكت عزة وضحك الأطفال، ثم وضع لها الحارس فوق عصاه قطعة من الخس أصغر من كف يدها لتقدمها للقرد، فقفز القرد بلهفة ووضع قطعة الخس في فمه بصورة تنبئ تمامًا عما يعانيه من جوع!

ثم التفت الحارس إلى الأطفال محاولًا إغراء طفل آخر ليكرر معه نفس الأمر ويحظى منه بالجنيهين، فيما انزوى القرد في ركن القفص وطأطأ رأسه ناظرًا إلى الأرض بانكسار في انتظار القادم!

لم يتحمل (يحي) أكثر من هذا فابتعد في صمت وحزن؛ فيما تبعه صوت الحارس وهو يقول بلهجة رقيعة ممطوطة تعجب الزراع والصناع ومحدودي الدخل:

- من قداااام.. من قدام يا ابن العبيييطاااة.

وعند عودته للمنزل توجه مباشرةً إلى المطبخ حيث وجود أمه دائمًا في نفس التوقيت لإعداد العشاء فقال لها مداعبًا:

- هل ما أشمه صحيح يا (فريدة)؟

ارتسمت حينها بسمة خفيفة على وجه أمه وقالت:

- لا تتأخر في تبديل ملابسك يا (يحي) فقد انتهيت من إعداد الطعام.
- وأين أبي لم أره في الخارج! هل هو في غرفته؟
- لا إنه خارج المنزل.. لقد توفي عمك (جابر).

تغير حينها وجهه وتبدلت ملامحه وخرج من المطبخ في صمت متجهًا إلى غرفته حيث بدل ملابسه ثم جلس على السرير شاردًا. أتت إحدى الفتاتين وجلست بجواره على السرير ومدت يدها إليه بمشط دون أن تتكلم، نظر إليها وللمشط في يدها فقالت أمها:

- تريدك أن تمشط لها شعرها.

فأمسك (يحي) بالمشط وأخذ يمرره في شعرها، وبعد عدة دقائق قامت الطفلة تاركة إياه لتنضم إلى أختها التي تجلس على الأرض بجوار المكتب ممسكة بدمية تلعب بها وتداعبها.

أطلق (يحي) نظره إلى الأرض شاردًا لبضع ثواني ثم استطرد قائلًا:

- رحمك الله يا عم (جابر). رحمك الله أيها الرجل الطيب.

وفي المقهى وبعد منتصف الليل كان (يحي) جالسًا على تلك المنضدة الموضوع عليها كوبين من السحلب الدافئ، ويجلس أمامه (عزت) الذي كان يتحدث إليه بعدما أبدا له (يحي) استيائه مما رآه في حديقة الحيوانات فقال (عزت):

- اسمع يا (يحي) كثيرًا ما تلجئنا ضغوط الحياة إلى تقديم تنازلات، وتدفع بنا الحاجة والعوز إلى درجة من درجات الامتهان، فنأتي بأفعال وأقوال ما كنا لنأتي بها لولا الاضطرار؛ وكلما زاد الضغوط والعوز أكثر، غصنا مجبرين في امتهان أنفسنا أكثر وأكثر.

فقال (يحي) في حنق:

- ولكن أن يصل الامتهان إلى أن تجعل من نفسك مهرجًا حرفيًا أمام حفنة من المشاهدين لم يكن أحدهم يجرؤ يومًا أن يقف أمامك، فتلك هي القاسمة! هذا ليس قرد سيرك، هذا قرد حديقة حيوان من حقه أن يوفروا له طعامه وشرابه وأن يرعوه فقط مقابل أن يمكث في القفص، لا أن يجعلوا منه مهرجًا أمام الصغار! لو خرج هذا القرد من القفص فلن يجرؤ أحدنا أن يقف أمامه، ثم هو يرقص أمامنا نحن الأوباش ليسد جوعه، فأي امتهان وأي ذل كتب على هذا المسكين، وأي عذاب وجوع تعرض له على يد هذا الجلاد المجرم حتى يستسلم؟!

فأجابه (عزت) قائلًا:

- لا تسب الحارس، فمثله مثل القرد، كلاهما أجبرتهما الحاجة والجوع على الرقص وامتهان النفس، كلاهما مسكين، و(عزة) أيضًا مسكينة دون أن تدري، وأمها وأبوها مسكينان أيضًا يرقصان في مكان آخر ليوفرا لها الجنيهين اللذين أعطتهما للحارس؛ كلنا مساكين يا (يحي)!

صمت (يحي) قليلا ثم قال في أسى:

- بالفعل كلنا مساكين، وكلنا نرقص ونمتهن أنفسنا بشكل أو بآخر، وطالما ظللنا هنا فسيأتينا الدور تباعًا كي نرقص (لعزة) إن لم نكن نرقص لها الآن بالفعل دون أن ندري.

هنا قال (عزت) مستنكرًا:

- هكذا أنت يا (يحي) دائمًا تهدر الكثير من الوقت قبل أن تشرع في بدء حكايتك، لتتركني للفضول والحيرة حتى ألقاك في اليوم التالي، ألا بدأت رجاءً؟!

رد عليه (يحي) في حنق:

- بدأت تثير غضبي يا (عزت)، على أي حال لنبدأ من حيث انتهينا.

***

في بورسعيد تعرفت على ثلاثة أصدقاء من القاهرة، وكنا نسكن في شقة أنيقة في الحي التجاري هناك، لا نرغب أن يشاركنا أحد في السكن وخصوصًا من أبناء المحافظات الأخرى، وهذا للاختلاف والتباين في طريقة التفكير وأسلوب الحياة. وليس الأمر بالمقارنة أو المفاضلة، ولكنه فقط الاختلاف، وكما يقولون الطيور على أشكالها تقع.

وفى يوم كنت أقف مع أحد الأصدقاء بعد انتهاء المحاضرات في حين جاءنا صديقنا (مصطفى) برفقته شاب ضخم الجثة (هيلمان) كما يسمونه، قلما تصادف أن ترى مثل هذا العملاق في حياتك، فالنسبة لي كان هذا النموذج هو الوحيد الذي حظيت بمشاهدته حتى الآن.

هذا (حسن). هكذا قدمه لنا (مصطفى) واستطرد قائلًا:

- حسن زميل يكبرنا بدفعة وهو في مشكلة، فقد طرده أصدقاءه الأنذال من السكن شر طرده فعند عودته من أجازته وجدهم قد غيروا قفل الباب وتركوا له رسالة يخبروه بعدم رغبتهم في أن يسكن معهم! وهو الآن لا يجد سكن ويستسمحنا في أن نستضيفه لبعض

الوقت حتى يتدبر أمره ويجد سكن مع إحدى المجموعات الأخرى، ولن يطيل علينا لعلمه بعدم رغبتنا في أن ينضم إلينا وافد جديد.

وفي أثناء حديث (مصطفى) لم تطرف عيني وأنا أنظر إلى (حسن) هذا الكائن العملاق، متسائلًا في نفسي: كيف لأحد أن يتجرأ ويعبث مع هذا (الهيلمان)! وما أن انتهى صديقنا مصطفى من شرح ظروف حسن حتى كدنا أنا وصديقي (أحمد) أن نحتضن حسن، أقصد بعضًا من حسن متأثرين لما لاقاه من أصدقاءه الأنذال.

وبالفعل رافقنا (حسن) معنا إلى السكن، وبدأنا في إعداد الطعام فقد أصبحنا بارعين في هذا الأمر أو ربما كنا نرى أنفسنا كذلك، وذلك بعد باع طويل وصولات وجولات في المطبخ يطول سردها. وأذكر منها أن أول مرة لي في المطبخ قمت بغسل المعكرونة بناءً على توجيهات من صديقي –البُرَّم– (أحمد)، والذي حصل على دروس في الطبخ من والدته قبل مجيئه. حينها تداخلت حبات المعكرونة وامتزجت مع بعضها لتصبح كتلة واحدة صلبة، وأيقنا أنها لم تعد تصلح طعامًا للدواب فضلا عن الإنسان، فألقينا بها في سلة القمامة، وقررنا طبخ بعض الأرز عوضا عن المعكرونة، فتلقيت حينها توجيه وتحذير شديد

اللهجة من نفس الصديق –البُرَّم–. ألاَّ أقم بغسل الأرز حتى لا يلقى مصير المعكرونة، مردداً في ثقة أثقلتها الخبرة والتجربة أنه لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، لينتهي الأمر بإلقاء الأرز في نفس سلة القمامة مع المكرونة.

وكنا في رمضان حين قمنا باستضافة الأخ حسن.

- (حسن)!.. لا يصح أن تجلس بهذا المنظر!

قلتها وأنا أنظر في دهشة للأخ (حسن) الذي خرج علينا من الغرفة حرفيًا بملابسه الداخلية. بينما صديقاي ظلا صامتان من هول ذلك المشهد الصادم. فقال (حسن):

- وما المشكلة في ذلك فنحن هنا رجال مع بعضنا؟!

فرد عليه صديقي (مصطفى) والذي بلانا بهذا المخلوق قائلًا:

- (حسن) النوافذ مفتوحة وهناك جيران من حولنا فلا يصح أن يروا هذا المنظر!

وبعد حوار طال بيننا وبين الأخ (حسن) اقتنع أخيرًا بارتداء السروال وظل (بالفانلة) لعدم قدرته على تحمل الحر!

وما أن بدأنا في تناول الإفطار حتى تفاجأنا (بحسن) يأكل كما تأكل الوحوش في البرية، وكأنه آخر زاد له في الدنيا، وسرعان ما نفذ الطعام الذي طالما فاض قبل ذلك وما زلنا جوعى وكذلك الأخ (حسن). وفى اليوم التالي قمنا بزيادة كمية الطعام ليتكرر نفس الأمر حيث نفذ الطعام وما زلنا جوعى وكذلك الأخ (حسن)، فاقترح صديقنا (أحمد) في ضيق أن نطلب من (حسن) المشاركة في تكلفة الطعام فإن المخزون الذي لدينا لن يصمد طويلا بهذا الشكل، فاعترض (مصطفى) قائلًا:

- عيب عليك يا أخي إنه ضيفنا ونحن في رمضان ألا تستحي؟!

فتدخلت بدوري لأحسم الخلاف بينهما باقتراح حيلة تمكننا من مجاراة الأخ (حسن)، حيث أنه لم يعد بإمكاننا زيادة كمية الطعام حسب الإمكانيات المتاحة لدينا. وكانت الحيلة هي أن نخفى جميع الملاعق الكبيرة مدعين عدم إيجادها ونبقى على ثلاث ملاعق فقط، بحيث

يمسك كل منا بواحدة تاركين له ملعقة الشاي الصغيرة، وبهذا تتوازن المعادلة بيننا وبين الأخ (حسن).

وما أن وضعنا الطعام ووضعنا ملعقة الشاي الصغيرة أمام (حسن) حتى فطن لحيلتنا الساذجة تلك، وإذا به يجنح على الطعام بكلتا زراعية ليحتضنه منقضًا عليه بلهفة غريبة مقرفة، حتى أنه لم يجرؤ أحدنا أن يقرب حينها الطعام ولا (حسن)، وكدنا أن نبكى جوعًا وقهرًا.

ولكن كان عزائنا الوحيد هو أن صديقنا العزيز (عمرو) عائدًا إلينا من عند (أمه) حاملًا معه البشرى والفرج، طعامًا حقيقيًا طازجًا. فقد جرت العادة بيننا أنه في حين عودة أحدنا من أجازته (من عند أمه) يأتي للبقية البائسة بهذا المدد.

نزل (أحمد) للبحث عن أي طعام يشتريه لنا فنحن لم نحظى بفطورنا بعد ولن نحتمل الانتظار لحين عودة (عمرو) في وقت متأخر فقد كدنا نموت جوعًا.

ولم يمضي على نزوله سوى القليل حين سمعنا صوته صارخًا وكأنه في عراك مع أحدهم، فأسرعنا إلى الشرفة المطلة على الشارع حيث

مصدر الصوت، فكان كما توقعنا، كان شجار بينه وبين شاب من الباعة في أحد محلات الحي التجاري. والعراك في بورسعيد على العموم لا يتعدى كونه شخص يقف متفوهًا بسيل من السباب واللعنات بلكنته الممطوطة تلك، وشخص على الجانب الآخر يفعل المثل، وبينهما أناس كثيرة ذو أصوات عالية وصاخبة وممطوطة أيضًا لا تفهم من كثرتها وتداخلها وعلوها شيء، وهؤلاء بالطبع هم أولاد الحلال المتطوعين لفض النزال، أما عن صديقنا (أحمد) الفتى القاهري المدلل فقد اقتصر رد فعله وسط كل هذا الصخب على قول وترديد كلمة:

- أهو أنت... أهو أنت!

فأسرعنا نتسابق على درجات السلم ننهبها نهبًا لإدراك صديقنا والوقوف بجانبه، فاندمجنا بدورنا وسط كل هذا الصخب والزحم، إلى أن حدث أمر جلل أربك الجميع.. لقد غضب (حسن).

كان عملاقا يشق طريقه وسط جمع من الأقزام، دافعًا كل عائق في طريقه دفعًا عن يمينه وعن شماله، إلى أن أحكم قبضته على هذا الشاب الصارخ والذي ابتلع حينها لسانه ليعم الهدوء والارتباك والترقب المكان.

- لا تقتله يا (حسن) أرجوك!

قالها (أحمد) وهو متعلق بزراع (حسن)، بينما وقف (مصطفى) محاولا في ذعر أن يجعل من نفسه حائلًا بين الفتى المذعور بدوره و(حسن)، أما أنا فكنت واقفًا خلف (حسن) يشغل تفكيري وخاطري شيئًا آخر، فقد كنت أتساءل في نفسي كيف لإنسان أن يزداد حجمه بهذا الشكل عند الغضب؟!

وبعد أن أفقت من حالة الاندهاش التي تملكتني مستدركًا خطورة الموقف، توجهت إلى (حسن) ممسكًا بزراعة الآخر قائلًا له بعفوية لا يخالطها التوتر والارتباك:

- (حسن) دعك من هذا وتعال نبحث عن طعام نشتريه فنكاد نموت جوعًا!

وبالفعل أخذت أعصابه المشدودة في الارتخاء وأفلت الشاب من قبضته المحكمة، وسار معي حيث كنت أعرض عليه اقتراحات ما يمكن أن نشتريه من طعام. فكان الطعام هو الشفرة الوحيدة الصالحة لامتصاص غضبه والسيطرة عليه، فربما كانت غضبته من الأساس

سببها أنه وبعد أن التهم فطورنا بالكامل وكاد أن يلتهمنا معه مازال يشعر بالجوع!

وعندما وصل أخيرًا صديقنا العزيز الغالي (عمرو) في وقت متأخر من الليل، وجدنا في استقباله بالترحاب والتهليل والاشتياق بشكل مبالغ فيه وعلى غير العادة، مما أربكه وجعله يظن فينا الظنون، فربما دبرنا له أمرًا أو مكيدة ما.

كان (حسن) في الحمام في أثناء وصول (عمرو) فلم يره كما أن لهفتنا على الطعام أنستنا أمره تمامًا، وحين ارتاب (عمرو) من تصرفنا تركنا ودخل الغرفة لتبديل ملابسه ولكننا لم نتركه فدخلتا على أثره، فقال (مصطفي) بلهفة:

- ها. ماذا جلبت لنا من عند (أمك)؟
- اصبروا قليلا فلم ألتقط أنفاسي بعد!

فرد (أحمد) قائلًا:

- تلتقط أنفاسك!.. نحن من ستزهق أنفاسنا إن لم تخرج لنا الطعام في الحال.
- ما خطبكم! هل كنتم في مجاعة؟ تمهلوا قليلا.

قالها بعصبية ثم استطرد قائلًا:

- لقد أرسلت لكم أمي ديكًا.. (وفتح كفيه مبينا حجم (ديك أمه) بما يعادل تقريبًا حجم كلب!.. بهذا الحجم.

فأخذ (أحمد) يتفقد الحقيبة متسائلًا وقد بلغ الحماس منه مبلغًا مخيفًا:

- وأين ذلك (الديك) يا (عمرو)؟ أهو في تلك الحقيبة هنا؟
- لا إنه في الحقيبة الأخرى وقد تركتها عند..

ولم يكمل صديقنا (عمرو) والذي لم يعد عزيزًا علينا بعدها كلامه وإذا بالأخ (حسن) واقفًا عند باب الغرفة ممسكًا في يده (بديك أم عمرو) متسائلًا:

- متى ستأكلون هذا الشيء فأنا أتضور جوعًا؟

ولم يزد على هذا الكلام كلمة واحدة حيث خرج من الغرفة وفى يده (ديك أم عمرو).. ليسود الغرفة بعدها صمت دام للحظات قبل أن يقطعه (عمرو) متسائلًا في دهشة:

- من هذا؟!

فأجبته قائلًا:

- هذا (حسن) و (ديك أمك) قد ذهب.

وهنا ارتمى صديقاي (أحمد) و(مصطفى) على الأرض من فرط الضحك الهستيري المخلوط بالأسى والبكاء، بينما ظل (عمرو) في اندهاشه وعدم إدراكه. وفى حين افتراس الأخ (حسن) (لديك أم عمرو) كنا قد قصصنا على (عمرو) القصص ليهب واقفًا من مكانه وبعجرفة اعتدناها منه قال:

- هذا الكلام لا يعنيني في شيء، فلم يأخذ أحدكم رأيي في ذلك، وأنا لا أوافق على مكوثه معنا.

فقلت له مستنكرًا:

- ولا أحد منا موافق على مكوثه معنا يا (عمرو)، ولكن من يخبره بذلك؟
- أنا أخبره، فأنتم لا تعرفونني بعد، (أنا لا أستحي من شيء).

وحقًا يا (عزت) أنا لا أعرف إلى الآن متى وكيف اعتبرنا (حسن) نمازحه؟ ليقوم بجذب (عمرو) من قدمه لسحله على الأرض والذي لم يمضِ على معرفته به سوى بضع دقائق معدودات، مصدرًا ضحكات

لا يمكن أن تتخيل صدورها إلاَّ من (هيلمان) كهذا، ثم يحمل (مصطفى) ويلقيه كدمية على الأريكة! ولا أعلم كيف ومتى بدأنا نحن أيضًا في الضحك الهستيري! حيث قفز (أحمد) منقضًا على كتف (حسن) ممسكًا برقبته، بينما انقضضت أنا بدوري ممسكًا بقدمه لمحاولة إسقاطه أرضًا، ولكن هيهات هيهات فكيف لأقزام مثلنا أن يجهزوا على عملاق كهذا ويسقطوه أرضًا؟! إنه غير قابل للشد والجذب.. وقد كان من الحكمة حينها أن ننفد بجلودنا قبل فوات الأوان. فانطلقنا فارين نحو أقرب غرفة، يتقدمنا صديقنا (عمرو) المأكول (ديك أمه) (الذي لا نعرفه بعد، ولا يستحي من شيء) لنغلق على أنفسنا الباب، بينما أخذ (حسن) يحاول فتحه مصدرًا تلك الضحكات المرعبة.

وبعد أن التقطنا أنفاسنا نظر (أحمد) إلي (عمرو) وقال مازحًا:

- لقد أخطأنا حين تبعنا شابًا متهورًا ومتأثرًا بفقدانه (لديك أمه)!

وأتبعه (مصطفي) بقوله:

- تقصد (كتكوت أمه) أنا بالكاد كنت أراه في كف (حسن)!

لم يعقب (عمرو) على قولهما إنما قال متسائلًا:

- كيف سنتصرف مع هذا الشيء بالخارج؟!

فرددت عليه قائلًا:

- الحل سهل وبسيط، وكان أمام أعيننا طيلة الوقت ولم نفطن له، فما علينا إلاَّ أن نفعل ما فعلوه أصدقائه الأنذال معه!

فقاطعني (مصطفى) بعفوية ومشاعر صادقة قائلًا:

- لا تقل أنذال إنهم ضحايا مثلنا، فربما جاع يومًا وأكل أحدهم من يدري!

فأردفت قائلًا:

- إن الضحايا الأنذال قاموا بتغيير قفل الباب، ولحسن حظنا أننا لم نعطى (حسن) مفتاحًا للشقة من الأساس. لذلك وبكل بساطة لن نفتح الباب (لحسن).

رحب الجميع بهذا الحل وعلى رأسهم (مصطفى) الذي جلبه إلينا من البداية، وبالفعل في اليوم التالي رجع (حسن) من الجامعة ليجد حقيبة ملابسه أمام باب الشقة، فأخذ في الطرق على الباب بعنف واضعًا يده على جرس الباب مردداً في غيظ شديد:

- افتحوا. أعرف أنكم بالداخل. افتحوا.

وبينما نحن جلوس بالداخل موجهين أنظارنا إلى باب الشقة في ترقب، ملتزمين الصمت كما الأموات وإذا (عمرو) المأكول (ديك أمه) يكسر ذلك متسائلًا:

- تفتكروا ممكن يكسر الباب؟

انتفض حينها (مصطفى) متوجهًا إلى الباب على أطراف أصابعه ليحكم إغلاقه بالترباس. وبعد انتهاء الزوبعة ورحيل الأخ (حسن)، تنهد قائلًا:

- لا أصدق أننا قد تخلصنا بالفعل من هذا البلاء!

وبنظرة ماكرة وجهها (أحمد) إلى (عمرو) قائلًا:

- لم يحزنني في الأمر كله إلاَّ ما أصاب (ديك أم عمرو). تري يا (عمرو) ماذا ستخبر أمك إن سألتك عن (ديكها)؟

فأجابه عمرو متأثرًا بجراحه وحزنه على (ديك أمه) قائلًا:

- سأقول لها أن (ديكك) قد ذهب في الوباء يا (أم عمرو).

***

لم يتوقف (عزت) عن الضحك والقهقهة في أثناء حديث (يحي) وما أن توقف ليأخذ رشفة من كوب السحلب حتى قال له:

- أين كانت عقولكم يا (يحي)! فحين يجتمع مجموعة من الناس على نبذ شخص بعينه فلابد أن هذا الشخص به خطب ما، فكيف لكم أن تأمنوا له دون التحقق من أمره والسؤال عنه؟! على العموم قد راقت لي كثيرًا حكاية حسن، هل هناك المزيد منها؟
- في الحقيقة يا (عزت) أن تلك الفترة من التعليم الجامعي كانت بها الكثير من المواقف الطريفة والذكريات الممتعة، ولكنها أيضًا لم تخلوا من الذكريات الأليمة والمفجعة.
- شوقتني حقًا يا (يحي) أكمل فكلي آذان صاغية.

مضى عام كامل وما زلنا نسكن في شقتنا الأنيقة تلك في الحي التجاري ببورسعيد، وفي يوم كنت عائدًا من إجازة طويلة بعض الشيء، وصلت إلى الشقة في وقت متأخر حينها لم أجد أحدًا من الأصدقاء في الشقة، فقد خرجوا يتسكعون في شوارع الحى التجاري كعادتهم، فقمت بوضع أغراضي وألقيت جسدي على السرير لأريح ظهري قليلًا

من عناء الطريق، وغفوت لدقائق معدودة قبل أن أقوم من مكاني فزعًا على صوت ذلك الجرس المزعج، وصوت الطرقات المتواصلة على الباب، وقد كان هذا السلوك السمج من عادة أصدقائي حين عودتهم من الخارج، فتوجهت إلى الباب مسرعًا وقد اشتط غضبًا وأخذت أدندن ببعض السباب واللعنات، فكنت أرى أن هؤلاء الحمقى سوف يتسببون لنا حتمًا في مزيد من المشاكل مع الجيران بسبب تصرفهم هذا.

فتحت الباب فدخل ثلاثتهم مندفعين من الخارج تتعالى أصواتهم بالضحك والمزاح، قال أحدهم:

- ألم أقل لكم أنه قد عاد؟!

وقال الأخر:

- لقد فاتك الكثير اليوم يا (يحي)، فقد كان يومًا حافلًا مليئًا بالمصائب.

بينما توجه الثالث إلى المطبخ وكان يحمل في يده كيس بلاستيك فيه بعض الأشياء التي ابتاعوها من الخارج على ما يبدو، حيث قال:

- لقد وضعناك في الحسبان، وسواءً أكلت معنا أم لم تأكل سوف تدفع ثمن ما ابتعناه لك على أي حال.

لم أتحمل سخفهم حينها فتركتهم دون أن أتفوه بكلمة واحدة من شدة غضبى وحنقي عليهم، وعدت لأستلقي على السرير مرة أخرى، وما أن أغمضت عيني حتى فتحتها من جديد فزعًا على صوت ذلك الجرس المزعج وصوت طرقات الباب المتواصلة، فقمت فزعًا أتلفت من حولي فلم أجد أحدًا، فأسرعت لأفتح الباب وإذا بثلاثتهم يدخلون مندفعين من الخارج تتعالى أصواتهم بالضحك والمزاح. وما كان منهم إلاَّ ما كان منذ لحظات دون زيادة أو نقصان، حتى توجه إليَّ أحدهم بعد انتهاء العرض مستفسرًا عن حالة الاندهاش والتجمد التي رآني عليها! فقلت له:

- لا شيء فقط فزعت من ضجيجكم كالعادة.

كان الأمر مختلفًا عن كل مرة، ففي كل مرة حين أرى شيئًا متعلقًا بالمستقبل لا أتذكره مطلقًا إلاَّ في أثناء وقوع الحدث نفسه، وفي هذه الأثناء ينتابني شعور فقط أني رأيته من قبل ولا أتذكر رؤيتي له إلى بعد انقضائه، أما أن أشاهد الحدث قبل وقوعه بلحظات، وبكل هذا التفصيل والدقة! فهذا كان أمرًا عجيبًا ومفزعًا بعض الشيء.

وفى يوم مللنا فيه كل شيء من حولنا، اقترح أحد الأصدقاء أن نقوم بزيارة (رضا) في مسكنه، وعلى الفور رحبنا جميعًا بهذا الاقتراح، فوحدها رؤية (رضا) قادرة على كسر هذا الملل وإعادة البهجة إلى نفوسنا من جديد. فكان (رضا) من إحدى قرى الصعيد النائية، كان غريب الأطوار بعض الشيء ولكنه كان مقربًا إلينا بشكل كبير دون باقي أبناء المحافظات، فـ(رضا) شخصية كاريكاتيرية بما تعنيه الكلمة، حين تراه يشعرك بأنه أحد شخصيات عالم ديزني قد ضلت طريقها إلى عالمنا البربري الموحش عاجزة عن العودة لعالمها من جديد. فهو شاب شديد النحافة دقيق الملامح، ذو أنف طويل مدبب، بشرته بيضاء أو صفراء يصعب أن تحدد ذلك، عيونه خضراء لامعة تنطق ببراءة وطفولة لا تناسب عمره بأي حال، شعره أصفر ناعم يصففه دائما على أحد الجوانب محدثًا على الجانب الآخر فراغًا ممتدًا بطول رأسه، ودائما ما يكون شعره مبتل؟!

يرتدى العديد من الملابس بعضها فوق بعض صيفًا أو شتاءً على حدٍ سواء، وبرغم ذلك فإن كثرة الملابس لا تخفى من نحافته شيئًا. ويرتدى

سروال يرفعه إلى منتصف بطنه. فحين تنظر إليه لا تستطيع أن تخفى ابتسامتك إلى أن يختفي من أمام عينيك مهما كانت حالتك المزاجية سيئة.

لذلك فـ(رضا) كان مصدر بهجة بالنسبة لنا، كنا نحب رؤيته وكذلك هو، فقد كان كثير الزيارات لنا في مسكننا ويحب مجالستنا عن أبناء محافظته لما يشعره معنا من مودة لا يراها من الآخرين.

طرقنا الباب ففتح لنا أحد المقيمين في السكن، وما أن رحب بقدومنا وأدخلنا حتى تصادف ذلك مع خروج أحد الشباب المقيمين من غرفة (رضا) صارخًا وكأن أحدهم قد ارتكب في حقه أمرًا جلل. خرج حاملًا في يده حقيبة ملابسه وفى اليد الأخرى غطاء نومه مرددًا:

- والله لا أنام معه في غرفة واحدة، والله ولو استقر الأمر أن أنام على الأرض أو أن أترك هذا السكن بالكلية، والله.. إلخ.

وهنا ظهر (رضا) عند باب الغرفة بسرواله الذي يعلو إلى ما بعد منتصف بطنه ونظرته الطفولية البريئة المندهشة دائمًا كالعادة؛ ليفجر في أعماقنا بهجة كنا في حاجة ماسة إليها، وترتسم على وجوهنا ابتسامة

نظيفة لم نستطع إخفائها رغم هذا الجو المشحون المليء بالتوتر والصراخ والاحتجاجات.

اتجهنا إلى صديقنا المحبوب لقلوبنا (رضا) متسائلين:

- ماذا فعلت بالرجل يا(رضا)؟!
- والله لم أفعل له شيء!
- كيف ذلك يا (رضا) لقد خرج الرجل من الغرفة يصرح وكأن ثعبانًا لدغه.
- قلت لكم لم أفعل له شيء!
- أخبرني بصراحة يا (رضا) هل ترفث في أثناء نومك مثلا؟
- يووووه.

أمضينا معه بعض الوقت ولم يطل مكوثنا لتوتر الأجواء هناك فانصرفنا غير مدركين كيف يكون كل هذا التوتر سببه (رضا)؟!

وفى طريقنا للعودة وفي أثناء حديثنا عن نوادر (رضا) قال (مصطفى):

- أتعرفون. أنا حقًا مشفق على (رضا) من مكوثه مع هؤلاء، أنه لن يتحمل طباعهم، ما رأيكم أن نأتي به ليسكن معنا؟

هنا صرخ (عمرو) في وجهه قائلًا:

- أنت مرةً أخرى؟ ألا تكتفي وتتعظ؟ يا رجل إنَّ (ديك أمي) ناره لم تبرد بعد!

فانفجر جميعنا بالضحك حين تذكرنا ما كان من الأخ (حسن) مع (ديك أم عمرو).

وفى يوم من الأيام أتانا (رضا) في مسكننا زائرًا وبصحبته شخص مريب، غريب أطوار آخر. ولكنه من نوع مختلف تمامًا غير (رضا).

فكان شاب متوسط الطول، بشرته بيضاء شاحبة ليس فيها دموية أو حياة، تشبه بشرة مصاصي الدماء في أفلام هوليود، عيناه زرقاء باردة منطفئ نورها وكأنها ميتة بالفعل، شعره أصفر قصير ومجعد، ملابسه مماثلة للملابس الأوروبية الكلاسيكية في فصل الشتاء، حيث يرتدي معطف أو بالطو شتوي طويل أنيق.

وباختصار إنه شاب أنيق، مريب، غريب الأطوار، لا تظهر على ملامحه أي تعبيرات تشعرك بأنه حي يرزق. وقد عاش عمره كله في الجزائر مع والده، ورجع إلى مصر ليلتحق بالجامعة هنا.

وبعد أن تعارفنا عليه. تجاذبنا معه أطراف الحديث، حتى تطرق الحديث إلى نوعية مريبة وغريبة من المواضيع التي أثارها هو دون داعٍ!

لقد أخذ يتحدث عن الله والشيطان، وأخذ يبرر ويدافع عن الشيطان! فقد كان الفتى وكأنه يتحدث بلسان الشيطان نفسه!

فتراء لنا أنه أحد عبدة الشيطان هؤلاء، فقد كانوا منتشرين في هذه الآونة بشكل مخيف. فكان التوتر حينها يسود المكان، حيث آثر أصدقائي الصمت التام موجهين أبصارهم بترقب إلى الفتى في أثناء تحدثه. بينما أخذت أنا دور المحاور الذي يرد عليه كل مغالطة وادعاء وفرية يتفوه بها على سبيل (وجادلهم بالتي هي أحسن).

إلى أن قطع علينا (عمرو) دون مقدمات الحوار لينهي الحديث بلهجة خشنة قاسية، أخبره فيها بأنه قد بات غير مرحب بوجوده معنا، وأمره بمغادرة المكان في الحال.

فقام الفتى من مكانه بهدوء وبرود قاتل ومريب. ودون أن تظهر على قسمات وجهه أي تعابير توحى بالغضب أو الخجل أو الإهانة أو أي شيء

من ذلك القبيل! دون أي كلمة غادر المكان في حين كانت تراقبه أبصارنا بشيء من الريبة والتوجس، فكنا نرى وكأن هالة شيطانية تحيط به!

إلى أن قفز (رضا) من مكانه متجهًا بدوره إلى الباب وقد استشاط غضبًا ليفجر في نفوسنا بهجة كعادته، ويرسم على وجوهنا ابتسامة أزالت أجواء التوتر والعصبية التي كانت تسيطر على المكان منذ لحظات، فتوجهت أبصارنا إليه.

- إلى أين يا (رضا)؟
- شكرًا على حسن استضافتكم ومعاملتكم لضيفي!
- إنه كان ضيفنا نحن يا (رضا) فأنت هنا في مسكننا وكذلك كان هو!
- عظيم. وأنا لم يعد لي رغبة في المكوث في مسكنكم هذا.
- انتظر يا (رضا) سنتحدث في الأمر.

غادر حينها (رضا) مسكننا وقد عزم على عدم العودة إليه لزيارتنا مرة أخرى. مضت الأيام ووقع حادث جلل في الحي التجاري وتحديدًا في محيط العقار الذي نقطن فيه. كان ماس كهربائي نتج عنه حريق هائل نشب في

إحدى البنايات القديمة، وفى الواقع أن معظم البنايات في الحي التجاري قديمة وعتيقة، حيث الأسقف والواجهات مصنوعة من الخشب.

وكان يومًا مهيبًا. فلم أكن أعرف أن للنار صوتًا تقشعر له الأبدان وتفزع له القلوب والوجدان، فلك أن تتخيل يا (عزت) بناية أو برج ضخم عبارة عن عمود من النار، وكأنها مارد عملاق له شهيق وزفير مصدرًا صوتًا كالصراخ المروع، يأكل كل ما يعترض طريقه من أخضر ويابس بلا رحمة ولا هوادة، كانت النار تنتقل من بناية لأخرى منذرة بالويل والخراب للحي التجاري بأكمله. فكان الحدث مروعًا ومفزعًا وقد خلَّف وراءه من الخسائر ما خلَّف، وانقطعت الكهرباء عن الحي التجاري بكامله لخمسة عشر يوم متصلة.

غادر أصدقائي بورسعيد بعد الحادث عائدين إلى القاهرة بينما مكثت أنا ليومين بعدهم للضرورة، واقترح عليَّ أصدقائي قبل المغادرة أن أذهب لأقيم مع (رضا) في شقته نظرًا لانقطاع الكهرباء عن الحي الذي نقطن فيه بأكمله، ولكني رفضت هذا الاقتراح قائلًا:

- هل جننتم؟ (رضا)! إنهم ينامون ثلاثة على السرير الواحد، ثم هل نسيتم آخر لقاء بيننا؟ لقد غادر مسكننا عازمًا على قطع علاقته بنا!

فقال (عمرو):

- لا تكبر الموضوع يا (يحي)، أنت تعرف (رضا) جيدًا، وتأكد أنك حين تراه ستجده قد نسى الموضوع من الأساس!

لم أوافق على اقتراحهم هذا فالظلام كان عليَّ أهون من أن أضع نفسي في هذا الموقف، وكانت خطتي أني أشعلت شمعة لقضاء الليل في هذا الظلام الحالك الذي يمتد مد البصر مخيمًا على الحي التجاري بكامله محدثًا جوًا موحشًا كئيبًا، ولحين ذوبان الشمعة وانطفاء نورها أكون قد غلبني النعاس ونمت وتنقضي الليلة بسلام.

ولكن لم تسير الأمور كما خطت لها تمامًا. فقد دخلت إلى غرفتي بالفعل وأشعلت الشمعة ووضعتها على وحدة الأدراج بجانب السرير واستلقيت على فراشي مهيئ نفسي للنوم، ولم يمضي إلاَّ القليل حتى رأيت مشهدًا اقشعر له بدني.

رأيت وكأن هناك ضوء لشمعة أخري قد ظهر نوره فجأةً ويتحرك في الصالة! ثم رأيت رجلًا يحمل تلك الشمعة ويمضي بها من أمام غرفتي متجهًا للطرقة المؤدية إلى النصف الآخر من الشقة تسير بجانبه طفلة صغيرة ممسكة بسروال بجامته ومن ورائهم كانت امرأة ترتدي قميص نوم قصير ومفتوح من الأعلى، توقفت أمام باب حجرتي برهة ثم أدارت وجهها إليّ وأطالت النظر إلى عيني مما جعل شعر رأسي بل شعر جسدي كله ينتفض ثم مضت في طريقها لتلحق بالرجل والفتاة، نزلت عن الفراش متجها بحذر وترقب إلى باب الغرفة أغلقته وعدت للفراش أراقب الباب في صمت تام فهذا كل ما يمكنني فعله، وظللت طوال الليل وعيني مثبتة على الباب أري من خلال عقبه ضوء الشمعة يغدوا ذهابًا وإيابًا في الصالة إلى أن أتى الصباح ولم يغمض جفني ولم أذق طعمًا للنوم.

وفى الصباح الباكر غادرت الشقة وذهبت إلى الجامعة فقابلت هناك (رضا) والذي كان قد نسى بالفعل ما دار بيننا وكأن شيئًا لم يكن! فسألني بدوره:

- ما بك؟ تبدو شاحب الوجه وتظهر عليك علامات الإرهاق والتعب!

فأجبته باسمًا كعادتي حين رؤيتي له حتى وأنا على هذا الحال المزرى:

- لم أنم ليلتي يا (رضا).

فعرض عليّ المبيت معه، وأخبرني أن الجميع قد غادروا السكن عائدين إلى منازلهم وهو الآن بمفرده في الشقة، حينها وافقت، فقد كنت في أمس الحاجة إلى النوم وكان من المستحيل أن أبات بمفردي في الشقة ليلة أخرى، كما أنني لا أستطيع السفر عائدًا إلى منزلي لأن هناك أبحاث عليَّ تقديمها بنفسي في الغد ولهذا السبب لم أسافر مع أصدقائي.

وحين وصلنا إلى الشقة وجدتها كعهدي بها، مكان قذر بكل ما تعنيه الكلمة، حظيرة بشرية تعكس نوعيات وطبائع المقيمين فيها!

اخترت سريرًا في إحدى الغرف، لم يكن نظيفًا ولكنه كان الأنظف على كل حال، وقال لي (رضا) متحمسًا:

- خذ راحتك فأنا بالخارج، وإن احتجت لأي شيء ما عليك إلاَّ أن تقول (رضا) ثلاث مرات. تجدني بين يديك في التو والحال.

فقلت له باسمًا والنعاس يصرعني:

- أخرج من الغرفة يا (رضا).

ولم يمضِ سوى عشر دقائق بأقل تقدير حتى سمعت باب الغرفة يفتح، ففتحت عيني في تثاقل وبقدر ضئيل يمكنني فقط من رؤية من يدخل الغرفة، وإذا بي أرى ما لم يكن في الحسبان، إنه ذلك الفتى المريب الذي طردناه من شقتنا شر طرده. فقلت في نفسي أي ورطة هذه أوقعتني بها يا (رضا)! فتظاهرت بالنوم محاولًا أن أفوت عليه فرصة طردي من مسكنه كما فعلنا معه، في حين أبقيت عيني مفتوحة بقدر ضئيل جدًا كي أتمكن من مراقبته دون أن يلحظ ذلك.

فكان منه العجب العجاب. فقد ظل الفتى واقفًا أمامي يرمقني لبعض الوقت دون أن يتحرك، ثم اتجه ليجلس بجواري على السرير لبعض الوقت، ثم فعل شيئًا غريبًا! لقد مد أحد أصابعه ووضعه على أنفي ضاغطًا عليها بقوة!، ثم اعتصر أذني بكلتا إصبعيه حتى آلمني؟ حينها اعتصرت قبضتي وهيأت نفسي للكمه والوثوب عليه، إلاَّ أنه قام ليقف أمامي لبعض الوقت. آثرت حينها أن أتحلى ببعض الصبر لأرى ما وراء هذا المجنون غريب الأطوار. إلاَّ أنه خرج من الغرفة بنفس البرود الذي غادر به شقتنا، فقمت جالسًا على السرير أفكر في غرابة

الأمر، وعزمت على أن أخرج وأوسعه ضربًا بمجرد أن يفتح فمه ليتفوه بكلمة واحدة. فخرجت مغتاظًا متحفزًا، لأجده جالسًا بكل برود على الأريكة بجوار رضا. ظللت برهة من الوقت واقفًا أمامه ولم تطرف عيني وأنا أطالع عيناه التي لا أرى فيهما أي حياة، وكذلك هو فقد ظل يرمقني ببروده وملامحه الجامدة الخالية من أي تعابير توحي بأن له مشاعر وأحاسيس كباقي البشر.

ولا أخفيك سرًا يا (عزت) أنى في هذه اللحظات تخلل إلى نفسي بعض القلق والتوتر مما جعلني أعدل عما كنت أنوي القيام به، فقد انتابني حينها شعور أني أمام شيطان متجسد في هيئة بشر.

فتوجهت إلى باب الشقة مغادرًا المكان في حين لحق بي (رضا) متسائلًا:

- إلى أين أنت ذاهب الآن يا (يحي)؟!
- سوف أعود لسكني فأنا لا أشعر بالراحة هنا.

حينها أصر على مصاحبتي والمبيت معي كي لا أكون بمفردي في هذا الظلام ففرحت كثيرًا بهذا العرض فأنا لم أكن أعلم ماذا أفعل وإلى أي مكان أذهب ولعل وجود (رضا) معي في الشقة يحدث فارقًا وأتمكن من النوم.

دخلنا من باب الشقة حيث ظلام يصعب أن ترى فيه كف يدك، لذا ابتعت شمعة وعلبة كبريت قبل صعودنا إلى الشقة لصعوبة الوصول للشمع والكبريت الموجودين بالفعل في حجرتي. فأشعلت الشمعة وتوجهت بها إلى حجرتي وصحبت معي (رضا)، وكان بها سريرين نظيفين مريحين، ومن باب المجاملة والمعاملة بالمثل طلبت منه أن يختار أيا من السريرين يرغب في النوم عليه، فصعد على أحد السريرين تغمره سعادة بالغة كتلك التي تراها في أعين الأطفال حين يجلسون على سرير ناعم ونظيف ومريح.

وبمجرد أن استلقيت على الفراش حتى غط في نوم عميق. ولم يمضِ من الوقت سوى ساعة تقريبًا حتى استيقظت فزعًا على أصوات غريبة متداخلة ومرعبة تجمدت لها الدماء في عروقي. وكان مصدر تلك الأصوات هو (رضا)!

والذي ظهر لي في ضوء الشمعة الخافت أن جسده ينتفض وكأنه يصعق بتيار كهربائي عالي الجهد في جلسة تعذيب مصدرًا كل تلك الأصوات المرعبة. فقلت:

- (رضا. رضا)، استيقظ يا (رضا).
- ماذا هناك؟!
- ما بك ؟! هل أنت بخير؟
- نعم بخير.. ماذا هناك؟! أنا لا أفهم شيء!
- لقد رأيت منك ما ينم على أنك لست بخير يا (رضا) أخبرني ما بك واصدقني القول.
- بصراحة لقد أصبت بالمس في أثناء معالجتي لأحد الممسوسين في بلدتي بالقرآن، فسبعة من الجن تلبسوا بي لينتقموا مني. وفى كل ليلة يأتوني على هيئة كلاب وقطط وثعابين يطاردوني ويلحقوا بي الأذى.
- عظيم يا (رضا). فما كان ينقصني غير هذا، ولماذا عرضت عليّ المبيت معي في هذا الظلام الموحش على ما بك من مس وأذى؟!
- لم أحب أن أتركك وحدك في هذا الظلام.
- بل كان عليك أن تتركني وشأني يا (رضا).
- وإلى أين أنت ذاهب الآن بهذا الغطاء؟!
- سأمضي ليلتي في الشرفة. فخذ راحتك واعتبر المكان لك ولعفاريتك السبع.

جلست على مقعد في الشرفة حيث الظلام ممتد على مرمى البصر. يتخلله ضوء لشمعة يظهر عبر النوافذ المفتوحة هنا وهناك وكأنها نجوم على الأرض، فتشابهت الأرض حينها مع السماء، حيث الظلام الحالك وأضواء خافتة متناثرة في كل مكان. شعرت بنسمات الهواء الباردة تتخلل ضلوعي فالتحفت الغطاء مندثرًا بداخله، وأخذت في استرجاع بعض الأحداث المتعلقة (برضا). فاسترجعت في مخيلتي مشهد هذا الشاب الصارخ الملسوع الذي خرج مستجيرًا من غرفة (رضا)! كيف لم أعي ذلك؟! وأيضًا ذلك الفتى غريب الأطوار الذي قدمه لنا (رضا) على أنه زميل لنا في نفس الدفعة بالجامعة، أنا لم أره في الجامعة يومًا! لم أره سوى مرتين فقط أحدهما حين أتانتا إلى مسكننا والأخرى كانت هذا اليوم في مسكن (رضا)!

ثم كيف يعقل لشاب مثل هذا تبدوا عليه علامات الترف أن يسكن هذه الحظيرة القذرة! وأيضًا ظهوره المفاجئ المريب في هذه الليلة رغم تأكيد (رضا) لي أنه بمفرده في الشقة؟! أيعقل أن يكون الفتى أحد عفاريت رضا السبع؟!

وبعد أن غلبني النعاس أخيرًا وغط في نوم عميق، مسترخيًا على المقعد في الشرفة المطلة على الحي المظلم، تداعبني نسمات الليل الباردة، استيقظت فزعًا من جديد على أصوات متداخلة مرعبة ومفزعة، تجمدت لها الدماء في عروقي واشتعل لها شعر رأسي، بل شعر جسدي كله، ليهب واقفًا منتصبًا كأنني قنفذ بري قد استشعر الخطر. لقد كان هذا (رضا). أقصد (عفاريت رضا).

***

قال (عزت) مبتسما:

- ما أشبه حكاية (رضا) بحكاية (حسن) فهذه المرة أيضًا لم تلقِ بالًا لنفور الناس وإجماعهم على نبذ شخص بعينه! ولكن ألم يعهد إليك ذلك الشيطان أن يدعك وشأنك لحين بلوغك سن الأربعين؟ كيف إذًا ما زلت ترى تلك الكيانات؟!
- أنا بالفعل لم أعد أرى تلك الشياطين من حينها كما كنت أراهم في السابق، ولكن كما قلت لك يا (عزت) هذه لعنتي التي فتحت عليّ تلك النافذة على الجانب الآخر المحجوب عن جنسنا رؤيته من الأساس ولا دخل للشياطين بالأمر.
- فهمت. فلتكمل إذًا يا (يحي).

في اليوم التالي وبعد عودتي من الجامعة وتقديم ذلك البحث جهزت حقيبتي وغادرت الشقة، وفى طريقي لمحطة القطار مررت على محل الحاج (وهبة) صاحب الشقة فكان يقف هناك شاب يدعى (هيثم) يعمل لدى الحاج (وهبة) ويدير له ذلك المحل في الحي التجاري، وقد نشأت بيننا وبينه علاقة طيبة فكثيرًا هو من كان يستلم الإيجار لعدم

وجود الحاج وانشغاله في إدارة باقي المحلات، استقبلني (هيثم) بوجه بشوش قائلًا:

- كيف حالك يا (يحي)؟ خيرًا لم أعتاد رؤية أحدكم قبل موعد الإيجار، هل هناك خطب ما!
- لا شيء ولكن جئت أطرح عليك سؤال وأريدك أن تصدقني القول.
- ولما لن أصدقك! تفضل بالسؤال
- أخبرني كيف مات صاحب الشقة هو وزوجته وابنته؟

سكت (هيثم) قليلا ثم أردف قائلًا:

- وكيف علمت بالأمر؟
- هذا يعني أن الأمر صحيح! كيف لم تخبرونا بذلك عند إبرامنا للعقد؟
- نخبركم بماذا! وما شأنكم بهذا؟ أنتم مجرد مستأجرين لا علاقة لكم بتاريخ الشقة.
- أظن أنه عندما أرى أشباحًا تمكث معي في الشقة يصبح الأمر يعنيني!
- لا داعي لإطالة الحديث في الأمر، يمكنكم ترك الشقة إن رغبتم في ذلك.

- لا يمكننا فنحن على أعتاب امتحانات منتصف العام ولن نجد سكن في هذا التوقيت، أنا لن أخبر أصدقائي بشيء حتى تنتهي الامتحانات كي لا يتأثروا بالأمر، فقد جئتك وتحدثت إليك فقط للتحقق من الأمر.

تركته بعدها متوجهًا إلى محطة القطار عائدًا إلى منزلي.

مضت الأيام وقد اقتربنا من امتحانات منتصف العام، وكانت تواجهنا مشكلة كبيرة مع إحدى المواد الدراسية، حيث لم تجدي كل محاولاتنا في فهم مسائلها اللوغاريتمية المعقدة، ولم نجد أيضًا من يفهمها لنستعين به في فهمها، فالجميع كانوا يعانوا من الأمر ذاته، ولم يتبقى على موعد الامتحان سوى أسبوع فقط، فتوجهنا إلى أحد المراكز الخارجية التي يقيمها مجموعة من المعيدين لتحسين دخولهم المعدومة التي يتقاضونها من الجامعة، ولكنهم كانوا مبالغين جدًا في سعر المحاضرة الواحدة لهذه المادة، مستغلين بذلك معاناة الطلاب في فهمها، ولم تكن امكانياتنا تسمح بتحمل هذه التكاليف، ولم يكن أيضًا هناك متسع من الوقت كي يسافر أحدنا لجلب المزيد من المال،

فاقترح أحدنا أن نختار واحدًا منا فقط ليحضر هذه المحاضرات ونتشارك جميعًا في التكلفة، على أن يقوم بشرحها لبقيتنا، فقال (أحمد):

- عندي اقتراح وأظنه سيكون الأفضل. لقد تعرفت على المعيد لهذه المادة، إنه من القاهرة أيضًا، وعرفت منه أنه نزل للإقامة في بيت الشباب إلى أن تنتهي فترة الامتحانات، وقال إنه مستاء جدًا من الأجواء هناك. فماذا لو عرضنا عليه الإقامة معنا إلى حين انتهاء مدة الامتحانات على أن يقوم بشرح هذه المادة لنا؟ أظنه لن يمانع ذلك.

فرحبنا جميعنا بهذا الاقتراح. ورحب بذلك أيضًا المعيد، وانتقل للإقامة معنا حيث قام بشرح هذه المادة لنا في أثناء إقامته.

وكان اليوم الأول من الامتحانات حيث ذهبنا باكرًا للتعرف على أرقام الجلوس واللجان، وكانت لجنتي شبيهة بفصول المدرسة تمامًا من حيث (الدكك) المتراصة في أعمدة بطول الفصل. فجلست على المقعد حيث رقم جلوسي، ونظرت بجانبي لأرى لمن يكون رقم الجلوس بجواري على الدكة، فكان الاسم لفتاة اسمها (هيام).

بعد قليل جاءت (هيام) لتجلس جواري فتعمدت حينها عدم النظر إليها متجاهلًا وجودها تمامًا، ثم دخل مراقب اللجنة وبدأ بتوزيع الأوراق علينا، وبدأت على الفور في مطالعة ورقة الأسئلة، حيث تعرفت على جميع الأسئلة ما عدى السؤال الثاني فلم أكن أعرف إجابته، وللأسف كان سؤالًا إجباريًا، لذا خصصت له مكان في ورقة الإجابة وشرعت في الإجابة عن بقية الاسئلة على أن أعود لهذا السؤال حين أنتهي، وقبل انتهاء الوقت المحدد للامتحان بنصف ساعة سمح المراقب ببعض التجاوزات حين استشعر حالة الاضطراب والتوتر لدى الطلاب في اللجنة، حينها سمعت صوتها بجانبي تقول:

- السؤال الثاني؟

فأجبتها دون النظر إليها قائلًا:

- للأسف لا أعرف إجابته.
- أعرف ذلك. وهذه هي الإجابة تفضل.

وعرضت أمامي ورقة الإجابة الخاصة بها! وكنت لا أحب مثل هذه الأمور ولم أقم بها في حياتي من قبل، ثم إنه كان عدم الإجابة عن سؤال

واحد في الامتحان لن يكون له تأثير مدمر على النتيجة على أي حال! فنظرت لها وهممت بشكرها ورفضت عرضها، إلاَّ أن الشعور الذي انتابني حين نظرت إليها قد أربكني، فعدلت عن نيتي وبدأت في نقل إجابة السؤال من ورقتها دون أن أتفوه بكلمة؛ محاولًا إخفاء هذا الارتباك عنها.

لا أعلم حقًا يا (عزت) ما سر هذا الارتباك الذي داهمني وقتها! فلعله يكون بسبب عدم مخالطتي لفتاة من قبل فهذا الأمر لم يكن في الحسبان، فقد كانت حياتي كما تعلم مليئة بما يشغلني عن التفكير فيما يفكر فيه الناس.

وبعد أن قمت بتسليم أوراقي خرجت من اللجنة وكانت قد سبقتني هي في الخروج، وقابلتها عند سلم النزول للمبنى، فقد كانت في انتظاري على ما يبدو، ولم أجد حينها مفر من التوجه إليها وشكرها على تقديم المساعدة، وأخبرتها أنى حتمًا سأرد لها صنيعها في المرات القادمة، ثم استأذنت للانصراف بعد أن بلغ مني التوتر مبلغًا لم أعد أستطيع إخفائه وكبحه أكثر من ذلك.

وكانت المادة الثانية هي تلك المادة التي قام المعيد بشرحها لنا، وقد تفاجأت أن صديقنا (المعيد) قد قام بتسريب الامتحان لنا بالكامل في أثناء شرحه دون إخبارنا بذلك! حتى أن معظم طلاب الدفعة حينها قد رسبوا في هذه المادة لصعوبتها البالغة، بينما حصلت أنا وأصدقائي وكذلك (هيام) على تقدير امتياز.

وبعد خروجي من اللجنة قابلتها للمرة الثانية عند الدرج فقد كانت في انتظاري أيضًا على ما يبدو! وفي هذه المرة هي من قامت بشكري قائلة:

- الآن نحن متعادلان يا (يحي). صحيح أنى أعطيتك إجابة سؤال واحد وفى المقابل أعطيتني أنت الامتحان بكامله دون مبالغة! إلاَّ أن المبدأ واحد.

ومضت الأيام وقد اعتدنا نتقابل ونتجاذب أطراف الحديث بعد كل امتحان، حتى انتهت الامتحانات وانتهى معها العام الدراسي، وعدنا جميعنا إلى منازلنا.

وفى بداية العام الدراسي الجديد كان أول وجه قابلته من الوجوه التي أعرفها فور دخولي إلى حرم الجامعة كان وجهها هي، وكأنها كانت في انتظاري

وتبحث عني! فعجيب أمر تلك الفتاة، وعجيب شعوري كلما قابلتها، وعجيب ملاحقتها وحصارها لي في كل مكان أتواجد به داخل الجامعة!

لم يمضِ يومًا دون أن أراها أمامي تبتسم لي في دلال فلا أشعر بنفسي إلاَّ وأنا مقبل عليها! لقد استحوذت عليّ بالكامل، وما عدت أجالس وأسامر غيرها حتى أن الأصدقاء قد انتقدوا ذلك واستنكروه عليّ!

في الحقيقة لقد اعتدت عليها، واعتدت على مجالستها والحديث إليها.

في الحقيقة لقد بدأت أشعر أنى أريدها بشدة ولا يمكنني الاستغناء عنها.

في الحقيقة لقد أخبرتها أنى أحبها فتورد جبينها خجلًا وفرحًا.

في الحقيقة أنها أثرتني وملكتني وأنا كذلك ملكتها.

***

وبعد مرور الشهر الأول من النصف الثاني من العام، وبعد أن اعتدت رؤية هذه الأطياف المقيمة معنا في الشقة واعتادت هي الأخرى عليّ وعدلت عن فكرة ترك الشقة لأننا من المستحيل أن نجد شقة أخرى بنفس تلك المواصفات والسعر وفي هذا التوقيت من العام. أخبرنا الحاج (وهبة) أنه يريد إخلاء الشقة لأنه قام ببيعها ويريد تسليمها لصاحبها الجديد، وكانت مدة العقد أربعة أشهر فقط قابلة للتجديد حسب رغبة الطرفين وقد انتهت تلك المدة حينها.

وكما عودتنا الحياة فإن دوام الحال من المحال، ودائمًا ما تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، لم نتمكن من العثور على سكن جديد في هذا التوقيت المتأخر من العام، ولم يكن متاحا لنا حينها سوى اللجوء إلى بيت الشباب.

ويقع بيت الشباب ببورسعيد في موقع متميز جدًا، فهو أمام إستاد بورسعيد حيث لا يفصلنا عن شاطئ البحر سوى بضعة أمتار.

ولكن كان يقبع أيضًا داخل هذا النزل ذو الموقع المتميز كابوس طالما تحاشينا الاقتراب منه، إنهم إخواننا من أبناء المحافظات، وكأن القدر

يأبى إلاَّ أن يفتك ببراءتنا التي كنا حريصين على المحافظة عليها يومًا ما، معلنًا أن الأقدار لا تجري على هوى أحد.

دخلنا إلى بهو النزل حيث موظف الاستقبال والذي يبدو تمامًا كما يجب أن يكون عليه أي موظف حكومي محترم يبث الأمل والتفاؤل في نفوس العملاء حيث تقدمنا (أحمد) لينوب عنا كعادته وكما يحب أن يفعل دائمًا ليتحدث إلى موظف الاستقبال قائلًا:

- لو سمحت نحتاج غرفة لأربع أفراد.

لم يتلق (أحمد) حينها جوابًا من موظف الاستقبال الذي كان يطالع سجل مفتوح أمامه دون أن يرفع بصره عنه، ولا يعير السائل أي اهتمام! فأردف (أحمد) قائلًا:

- لماذا لا تجيبني؟ هل لي ببعض الاهتمام لو سمحت!

رفع موظف الاستقبال نظره عن السجل وقال في ببرود:

- لا يوجد لدينا غرفة لأربع أفراد.

ثم عاد ليطالع ذلك السجل من جديد، فأردف (أحمد) قائلًا:

- هل من الممكن معرفة ما هو المتاح لديكم، وما هو نظام الإقامة هنا؟
- لدينا غرف للإقامة المميزة وهذه تحتوي على ثلاث أسرة في الحجرة الواحدة، وهذه غير متاحة في الوقت الحالي، وباقي الغرف هنا يوجد بها من ستة إلى أثني عشر سرير في الغرفة الواحدة، والحجز هنا يكون بالسرير وليس بالغرفة، والحجز يكون باليوم وليس بالشهر، وتكلفة السرير اثني عشر جنيها في اليوم الواحد، والدفع يكون مقدمًا.

تحاورنا قليلًا قبل أن يعاود (أحمد) حديثه مع موظف الاستقبال قائلًا:

- نريد أربعة أَسِرَّة يكونوا في غرفة واحدة رجاءً، ولمدة أربعة عشر يومًا.

طالع السجل أمامه ثم طلب منا بطاقات الهوية ودون أن ينظر إلينا قال:

- غرفة رقم (١٣) في الدور الثاني. وإن كان لديكم ما تخشون عليه يمكنكم تركه في الأمانات، فالإدارة غير مسؤولة عن أي أغراض تختفي لديكم.
- بداية مبشرة بالهول.

قالها (مصطفي) ونحن في طريقنا متجهين إلى الغرفة السالف ذكرها في الطابق الثاني، وكان الطابق عبارة عن ممر طويل على جانبيه العديد

من أبواب الغرف المتراصة. وفي أثناء سيرنا مررنا بدورات المياه التي كانت تقع في منتصف الممر تمامًا، حيث خرج منها شاب يرتدى ملابس منزليه أنيقة وعصرية، واضعًا على كتفه منشفة تبدو نظيفة، فنظرت إلى أصدقائي قائلًا:

- أما هذا فأظنه يبشر بالخير، فقد كنت أتوقع أن يخرج علينا أحدهم بملابسه الداخلية على غرار أخوكم (حسن).

وعندما وصلنا أمام الغرفة رقم (١٣) قام (عمرو) بطرق الباب استئذانا للدخول فلم يجب أحد، وإذا بعاملة النظافة (السجانة) التي ظهرت فجأة من خلفنا تدفعه قائلة:

- الأبواب هنا تفتح هكذا.

وفتحت الباب بعصبية لتتقدمنا حاملة الملاءات النظيفة اللازمة لفرش الأَسِرَّة الأربعة، وفى هذه الأثناء توجهت إلينا أنظار الشباب المقيمين في الغرفة تتفحصنا بنظرة مريبة تمامًا كتلك النظرة التي يتلقاها السجين المستجد فور دخوله الزنزانة للمرة الأولى له، حتى أني شعرت بأن أحدهم ربما يتوجه إليَّ فور مغادرة (السجانة) قائلًا:

- (قب أو أهرش أو ربما اقلع).

ولكن الله سلم ولم يحدث شيء من هذا. فوضعنا أمتعتنا وبدأنا نهيئ أنفسنا للاسترخاء والنوم. وإذا بأحد الشباب يجلس على سريره، وفى يده كتاب قد أخرجه لتوه من حقيبته، فأخذ يقرأ بصوت جهوري مسموع للجميع. لقد كان يقرأ ويدندن بما يشبه الترانيم المسيحية، وعلى الفور طالبه أحد الشباب بالتوقف عن هذا، إلاَّ أنه أبى إلاَّ أن يكمل قراءته، فازدادت حدة المطالبة وازداد أيضًا عدد المطالبين، بينما الفتى مستمر في قراءته غير آبه للتوعدات والتهديدات الموجهة إليه. فاندفع الشباب في غيظ وقاموا بالاعتداء المهين عليه بالركل والصفع محاولين إخراسه، بينما ظل الفتى مستمرًا في قراءته في أثناء الاعتداء عليه.

فاسترهبنا الموقف واندفعنا مسرعين أنا وأصدقائي للحول بين الشباب الثائر المعتدى وبين الشاب المسيحي المسحول، وبينما أصدقائي منهمكين في محاولة صد المعتدين وتهدئتهم، توجهت أنا بدوري إلى الفتى مطالبًا إياه أن يتوقف لتتوقف كل هذه الفوضى، فأجابني قائلًا:

- هذا ديني!

فرددت عليه قائلًا:

- دينك لك. اقرأه لنفسك واخفض من صوتك فليس لنا رغبة في سماع ما تقرأ! وليس لك الحق في أن تفرض علينا سماعه!

فقال متهكما:

- ولكنكم ترغموني على سماع قرآنكم! فلم أكن أرغب في سماعه حين تنقلوه لنا في صلواتكم بمكبرات صوت خارج مساجدكم إلى داخل بيوتنا بل وغرف نومنا بل وفى أحلامنا! ولم أكن أرغب في سماعه حين يقوم السائقين بعرضه علينا عنوة في أثناء المواصلات، أو حين يجلس بجواري أحدكم يدندن بتلاوته طيلة الطريق ليسمعني إياه رغمًا عني! وحين أطالب باحترام خصوصيتي والتي هي من حقي في المواصلات والأماكن العامة المخصصة للجميع على حد سواء أو حتى في مسكني الذي هو ملكي أنا، أقابل بالزجر واللامبالاة! إذًا فهذا هو ديني أجهر به كيفما شئت ووقتما شئت كما تفعلون، ولا يحق لكم أن تتعرضوا لي وتمنعوني من ذلك.

وأخذ الفتى يكمل قراءته. حينها جن جنون القوم وأصروا على الفتك به، فاحتدم الخلاف بيننا واحتمى الوطيس ولم يعد هناك مجالًا للتفاهم والحوار، فاستللنا أحزمتنا مضطرين لذلك، ملوحين بها يمينًا وشمالًا، لنقف حائلين دون النيل من الفتى، ولنخوض معركة لا ناقة لنا فيها ولا جمل!

فلم يكن موقفنا هذا دفاعًا عن دين بعينه، ولا عن عرق بعينه، ولا عن شخص الفتى فنحن لا نعرفه من الأساس، ولكننا وجدنا أنفسنا أمام نموذج يجسد حالة من حالات الاستضعاف والعنصرية، فأبت كرامتنا ومروءتنا أن تسمح بوقوع مثل هذا بين أيدينا ونحن شهود عليه.

وهنا كانت المفاجأة. والتي كانت بمثابة الصفعة الموجعة لي وللأصدقاء. انفجر الجميع بالضحك! الشباب الثائر المعتدي، وكذلك الفتى المسيحي المستضعف المسحول، والذي تبين لنا أن اسمه (محمد)! فكان كل هذا مجرد مزحة، وقد أوقع بنا هؤلاء الأوغاد. وكانت هذه بمثابة التشريفة التي حظينا بها في أول ليلة لنا في بيت الشباب.

ولمعرفتي بطبائع أصدقائي توجهت على الفور إلى (عمرو)، ذلك الصديق المتعجرف، فدائمًا ما يسبق غضبه حلمه، والذي هم بالفعل في غيظ للنيل من الفتى المخادع، لولا وقوفي أمامه باسمًا ومربتا على كتفه لامتصاص غضبه قائلًا:

- هون عليك يا صديقي فإنها مجرد مزحة! نحن دافعنا عنه حين كان اسمه (جرجس أو مينا أو حنا) وتريد الآن الفتك به بعدما تبين لنا أن اسمه (محمد)؟!

***

ضحك (عزت) كثيرًا وهو يوجه حديثه ل (يحي) قائلًا:

- من أعمالكم سُلط عليكم يا (يحي) فما فعلته بالناس في طفولتك قد رد إليك الصاع صاعين، لكن أتعرف. قد راق لي كثيرًا المنطق الذي تحدث به ذلك الفتى المخادع، وبت حقًا أتساءل في نفسي. ما الداعي لإذاعة الصلوات في المكبرات الخارجية دون الاكتفاء فقط بالمكبرات الداخلية للمساجد لإسماع المصلين؟! ولتقتصر المكبرات الخارجية فقط على الأذان للصلاة، وما الداعي أيضًا ليدندن أحدنا بتلاوة القرآن بصوت مرتفع في أثناء المواصلات العامة! أليس من الممكن أن يكون هناك من يتأذى من ذلك إما لعلة ما كأن يعاني أحدهم من الصداع مثلًا! أو انشغال أحدهم بمطالعة كتابات خاصة سواءً بالدراسة أو العمل! أو حتى لعدم رغبة أحدهم في سماع ذلك كما بين ذلك الفتي؟!

أومأ (يحي) برأسه قائلًا:

- دعني أكمل يا (عزت) فالوقت يداهمنا، وهذا القول يمكن أن يخرجك أحدهم به من الملة في هذا الزمان فلا تحدث به أحد!

بعد مرور فترة على إقامتنا في بيت الشباب، تعرفنا هناك على صديقين جدد من القاهرة أيضًا، لنصبح بذلك مجموعة صغيرة مكونة من ستة أفراد تمثل وفد القاهرة في بيت الشباب، وسط مجموعات كبيرة متنافرة من أبناء المحافظات ذات الطبائع المختلفة.

وفي يوم وفي أثناء عودتي من إجازة طويلة، دخلت إلى الغرفة الصغيرة المكونة من ستة أسرة والتي أصبحت مخصصة لنا بعد أن أبرمنا اتفاق مع الإدارة على ذلك، لأجد أصدقائي يتسامرون فيما بينهم، بينما كل منهم يجلس على سريره، ورغم عودتي من إجازة طويلة، إلاَّ أن الأصدقاء لم يستقبلونني بالحفاوة المعهودة! وهذا لأني لا أحمل معي أي طعام أو مدد على غرار (ديك ام عمرو) فقد انقضت هذه العادة وولت منذ أن تركنا شقتنا الأنيقة وأقمنا في بيت الشباب، ولولا هذا لاستقبلني هؤلاء الأوغاد زحفًا على بطونهم.

فوضعت أغراضي وأخذت أهيئ نفسي لأريح جسدي من عناء الطريق، فإن الطريق بين القاهرة وبورسعيد شاق وطويل كما تعلم، وفي أثناء قيامي بذلك، تفاجأنا بقيام أحدهم بدفع باب الغرفة بقوة وعنف! ليدخل علينا عدد لا بأس به من الشباب حاملي الأحزمة

والهراوات الغليظة والتي لا أعلم حقًا كيف لطلاب يقيمون في بيت الشباب وفي وقت امتحانات أن يتحصلوا على مثل هذه الأشياء أو يحملوها في حقائبهم!

فأخذ الأوباش ينتشرون في الغرفة كما الجراد، وكان هدفهم الأساسي على ما تبين لي هو الترهيب والإهانة. فنظرت إلى أصدقائي لأجد كل منهم يجلس في مكانه متحجرًا كأنه تمثال! وكأن المفاجأة ورهبة الموقف قد شلت حركتهم وتفكيرهم تمامًا! وهنا اتخذت قرارًا سريعًا. حيث افترشت سريري، والتحفت غطائي، وأعطيت الجميع ظهري وكأن الأمر لا يعنيني بالمرة.

لا تنظر لي هكذا يا (عزت)، فالأمر ليس كما خيل لك، فأنا ومنذ الصغر أجيد قراءة الأحداث ووضع الخطط والاستراتيجيات كما تعلم، ولو كنت أرى أن الوضع يحتمل غير ذلك لفعلت.

حينها تقدم نحوي أحد الأوباش ليجلس على سريري ويرفع عني غطائي، وبلهجة غير ودودة قال آمرًا:

- قم فلا أحد هنا سينام الليلة.

فنظرت إليه ببرود أعصاب ولا مبالاة ودون أن أغير من وضعيتي تحدثت قائلًا:

- اسمع يا هذا. سواءً أكنت تمزح معي أم تتكلم بجدية؟ لقد وصلت للتو من سفري وأحتاج للنوم، ومن الأفضل لي ولك أن تبتعد عن سريري في الحال.

والغريب في الأمر أن هذا الوغد قام بالفعل وتركني وشأني! ولا أعلم حقًا أيعود هذا لدعوة أمي لي في تلك الليلة؟ أم لتلك النظرة المخيفة التي طالما أخبرني الأصدقاء عنها، فكان الجميع دائما يتحاشون النظر إلى عيني عند الغضب؟! وهذا ما قصدت استغلاله حينها ولأول مرة.

استغرق الأمر بضع دقائق قضيتها وأنا مستلقٍ على سريري متدثرًا بغطائي، أستمع لسيل الإهانات التي يتعرض لها الأصدقاء دون أن يحرك أحدهم ساكنًا! وحين انتهى الأوباش وغادروا الغرفة، نهضت منتفضًا عن سريري. لأراهم جالسين جلستهم لم تتغير، وأنظارهم لا ترتفع عن الأرض، ووجوههم محتقنه بالدماء، وكأنها توشك على الانفجار من شدة الغيظ، فتحدثت إليهم قائلًا:

- لا أريد معرفة السبب وراء ما حدث. كل ما أريده الآن هو تغيير هذا الوضع المهين حالًا.

وهنا ارتفعت أنظار الجميع نحوي وكأنه لم يكن ينقصهم حينها سوى الحافز الذي يخرجهم من حالة التصلب التي سيطرت عليهم وشلت حركتهم وإرادتهم. فأردفت قائلًا:

- هم الآن مشغولين بالتفاخر والإعجاب بأنفسهم ولا يتوقعون منا ردة فعل، وما سنفعله الآن هو مباغتتهم واقتحام الغرفة عليهم كما فعلوا معنا، ولكننا لم نقتحمها للتحاور وجذب أطراف الحديث معهم كما فعلوا، بل للاشتباك معهم ودون رحمة، والأمر يجب أن يحدث سريعًا دون أن نعطيهم فرصة ليتداركوا الموقف حتى لا ينقلب الأمر علينا، فهم الأكثر عددًا وعدةً، فيجب علينا معرفة ما سنقوم به بالضبط سلفًا قبل الدخول عليهم.

وهنا قام الأصدقاء عن فرشهم ليلتفوا حولي وكأن الشرر يتطاير من عيونهم فاسترسلت قائلًا:

- أولًا هم لديهم فتى مفتول العضلات وهو من يحركهم، فمن منا يتولى أمره ولا يفلته ويترك أمر البقية للآخرين؟

وعلى الفور وبدون تردد وفى غيظ شديد قال صديقنا الجديد طويل القامة مفتول العضلات (خالد):

- دعوا أمره لي.
- عظيم. ستكون أنت في المقدمة لتنطلق نحوه واترك لنا أمر البقية.

وقمت باستلال حزامي وكذلك فعل بقية الأصدقاء. فكان هذا كل ما لدينا. وبلهجة حماسية حازمة خطبت فيهم قائلًا:

- ليتجه كل منا فور دخوله الغرفة في اتجاه مختلف ضاربًا بلا رحمة ولا تعقل وحذاري من التراجع حتى ينتهي الأمر برمته، وحين يحضر باقي النزلاء لفض العراك لا تستجيبوا لهم سريعًا حتى تخور قواكم ويغلبوكم، وإن تمكنوا منكم فلا تكفون حينها أيضًا عن نعتهم بالسباب والوعيد.

وما أن أنهيت كلامي إلاَّ وبصديقي (خالد) ذلك الفتى طويل القامة مفتول العضلات، وبسرعة استجابة أربكتني أنا شخصيًّا، ينطلق

مسرعا إلى باب الغرفة ويتبعه بقية الأصدقاء دون تردد ولا هوادة، حتى وجدت نفسي فجأة في المؤخرة أهرول للحاق بهم، فكدت أن أصرخ فيهم قائلًا:

- انتظروني أيها الأوغاد فأنا من وضعت هذه الخطة.

ربما كانت مرارة الانكسار حينها قد قتلت الرهبة في قلوب الأصدقاء فلم يعودوا يرون أمامهم إلاَّ الثأر لكرامتهم مهما كلفهم الأمر.

ركل (خالد) باب الغرفة بقدمه لينطلق وننطلق في إثره كسهام ملأت قلوب الأوباش المعتدين رعبًا وفزعًا، فأربكت صفوفهم وشلت حركتهم وعمت الفوضى أرجاء المكان، وسرعان ما تعالى الصراخ والسباب والضجيج، وسرعان ما انقلب النزل رأسًا على عقب، وأصبح الأصدقاء الذين كانت أعينهم منذ قليل لا تفارق الأرض خجلًا وغيظًا أراهم حينها جبابرة طغاة يلتف حول كل واحدٍ منهم الثلاث أو الأربع فتيان محاولين تهدئتهم واسترضائهم!

وهنا انتبهت لأمر غريب! لماذا لا يمسك بي أحدهم كباقي الزملاء محاولًا منعي من فعل شيء ما؟! فنظرت للجميع في غيظ ولسان حالي يقول:

- ليمسك بي أحدكم أيها الأوغاد فأنا معهم! وأنا من وضع تلك الخطة اللعينة.

ثم دفعت بنفسي وسط الزحام مجاهدًا ومجتهدًا لعل يكتشفني أحدهم ويمسك بي! فقد كان لدي حصيلة لا بأس بها من السباب واللعنات قد أفنيت عمرًا في تحصيلها، ولم تسنح لي الفرصة لاستخدامها حتى ذلك الحين، فإن لم أطلقها في حدث كهذا فمتى يكون ذلك؟! فصرخت في نفسي قائلًا:

- فليساعدني أحدكم أيها الأنذال.

وسرعان ما حضر المسؤولين عن النزل وتم طردنا، وطلبوا منا سرعة المغادرة حتى لا يقوموا بإبلاغ الشرطة، فانصرف أصدقائي لإحضار أغراضهم، بينما ظللت أنا واقفًا أندب حظي على فوات هذه الفرصة النادر حدوثها، وإذا بأحد المسؤولين يتوجه نحوي قائلًا:

- أنت. لماذا لا تزال واقفًا عندك؟

- أنا؟ أنا لست معهم!

- أتمزح معي؟ هيا ألحق بأصدقائك في الحال.

فذهبت بدوري وأنا أكتم غيظي قائلًا:

- الآن فقط هم أصدقائي وأنا معهم؟! تبًا لكم جميعًا أيها الأوغاد.

خرجنا نتسكع في طرقات بورسعيد والتي خلت تمامًا من المارة، لا نعلم إلى أين نذهب؟ ومع هذا فكانت تغمرنا السعادة والبهجة ونشوة الانتصار. فقال (مصطفى) مازحًا:

- أتعلمون يا رفاق أظننا قد أخطأنا عندما تخلصنا من أخوكم (حسن) فأظنه لو كان معنا إلى الآن لما تجرأ علينا هؤلاء الأوغاد من الأساس.

ليصرخ في وجهه (عمرو) مستنكرًا:

- (وديك أمي)! أنسيته يا (مصطفى)؟! فلو كان الديك لأمك أنت لما قلت ذلك.

فتعالت ضحكات الأصدقاء القدامى بينما تساءل الرفاق الجدد:

- ومن يكون (حسن) هذا؟

فأجابهم (أحمد) وهو ينظر إلى (عمرو) هامزًا لامزًا:

- إنه من أكل (ديك أم عمرو).

بينما نظر إليَّ الرفيق الجديد الآخر (كريم) متسائلًا:

- وأنت ما بك؟ لما يعتريك الحزن والأسى؟

فرددت عليه وقد اعتراني الإحباط قائلًا:

- كل واحد منكم أخذ فرصته وأطلق لنفسه العنان في اخراج كل ما في جعبته من سباب وقاذورات، ماعدا أنا، فلم أظفر بهذه الفرصة ولم أطلق سبة واحدة! بينما أنا من وضعت تلك الخطة! وأنا من أمليت عليكم بهذه التعليمات! ألا يستدعي ذلك الإحباط.

فانفجر الجميع بالضحك، وربت (كريم) على كتفي حيث قال مواسيًا:

- هون عليك يا (يحي)، فربما أبى القدر إلاَّ أن يحفظ لك عذريتك.

***

وقد عدنا من جديد للإقامة في بيت الشباب، وذلك بعد أن أجرينا بعض الاتصالات والمباحثات ليتبين لإدارة النزل أننا كنا المجني عليهم ولسنا الجناة، وقد تغير الوضع كثيرًا بالنسبة لنا في بيت الشباب، فمنذ معركة الكرامة تلك تغيرت على إثرها نظرة الشباب لنا، وأصبح الكل يحفظ لنا قدرًا، وتمكنا أخيرًا من التعايش والاندماج مع هذا المجتمع المصغر المكون من مجموعات ووفود من شتى محافظات مصر ونجوعها ذات الطبائع والثقافات المختلفة.

ومن أبرز تلك المجموعات هم وفد (الإسكندرية)، فقد كانوا يسيطرون على النزل إلى حد ما، وهذا لأنهم الأكثر عددًا والأكثر قدرة على المراوغة والتلاعب بالألفاظ وإطلاق (الإفيهات)، ولكن أكثر ما كان يسوء هذا الوفد من شباب الإسكندرية هو اعتيادهم على تدخين (المارجوانا) بشكل يومي، ولهذا كنا لا نقرب مجالسهم ليلًا على الإطلاق. فذات يوم ذهب (مصطفى) إلى دورات المياه، ليجد أحد هؤلاء الشباب هناك فحياه بابتسامة رقيقة ناعمة، فرد عليه الأخير بصفعة مدهشة، ثم انفجر في الضحك دون توقف حتى احتقن وجهه بالدماء وانتفخت عروقه، ثم ارتمى على الأرض مغشيًا عليه من فرط

الضحك الهستيري! وبدلًا من أن يثأر صديقنا لنفسه أخذ يحاول تهدئته، ثم إسعافه! فقد كان الفتى من شباب الإسكندرية، وقد أسرف على نفسه في هذه الليلة.

وقد تعلمنا الكثير والكثير من هذا الاختلاط والاندماج مع هذا الكم الهائل من الشباب بمختلف ثقافاتهم وعاداتهم، وأصبح حينها لدي فراسة تمكنني من معرفة لأي المحافظات ينتمي من أتحدث إليه دون أن يخبرني هو بذلك.

ومن بين هذا الكم الهائل من جموع الشباب، قد تعرفنا على شاب فريد من نوعه، غريب أطوار آخر يدعى (أمجد)، وقد جاءنا هذه المرة من الأردن. فقد أفنى عمره كله مع والده هناك، وعاد إلى مصر ليلتحق هو الآخر بالجامعة.

وكان الفتى يحترف رياضة (الكاراتيه)، وكان يمتلك قدم صلبة وركلة قوية، وقد التمعت عيناه حين رأى صديقنا (خالد). ذلك الفتى القوي مفتول العضلات، فراق له بنيانه وقوة زراعه، ووجد فيه ضالته، وأنه الخصم الجدير بالمنافسة، فأصبح كلما رآه شاء أم لم يشأ دخل معه في

تحدي ونزال طويل وعنيف رهانًا على قوة التحمل والمثابرة، حيث هذا يركل هذا، بينما هذا يلكم هذا! وكان الأمر مسليا في البداية، فكان الشباب يلتف حولهم في شغف وترقب، ولكن مع مرور الوقت وتكرار الأمر أصيب الجميع بالملل وكذلك صديقنا المسكين (خالد)، فحتى عندما كان يحتدم النزال بينهما ويطرح أحدهما الآخر أرضًا، يقوم المارة بالوثوب من فوقهما وتخطيهما كأنهما حفرة تعترض طريقهم، ثم يكملون سيرهم دون النظر إليهما ودون أن يعيروهما أي اهتمام!

فهذا المجنون كان لديه طاقة غريبة فلا يكل ولا يمل، بينما (خالد) لديه كبرياءه الذي يمنعه من رفض ومواصلة التحدي تحت أي ظروف، فكان كل ما يستطيع فعله هو أن يتوارى عن أنظار هذا المجنون لئلا يراه!

ومنذ ذلك الحين أصبحت عضلات (خالد) المفتولة والمتباهي بها هي مصدر شقائه ومعاناته، وأصبحت حياته تشبه حياة المطارد، فدائمًا ما يكون مترقب ويتحسس خطاه كلما غدا أو راح، ودائمًا كنا نتقدمه ببضع خطوات لنأمن له الطريق عند دخوله وخروجه من النزل!

وكان هناك شاب ريفي لا أذكر من أي محافظة، حيث كان هو الوافد الوحيد من قريته على ما يبدو، وكان الجميع يعاملونه معاملة مهينة وكأنه صعلوك دون مبالغة ودون سبب واضح، وبالأخص وفد (الإسكندرية) فكانوا يتفننون في إهانته، وكنت أتعجب حينها. كيف لهذا الشاب قوى البنية مكتمل الصحة شديد البأس أن ينتهي به الحال ليصبح أضحوكة وسط هؤلاء الشباب أصحاب الأجسام البالية الخربة من فرط تدخينهم (للمارجوانا)؟!

كنت أشفق عليه حقًا، فكنت دائم التحدث والتودد إليه لأخفف عنه وطأة الإهانات التي يتلقاها كلما غدا أو راح، دون أن يكون لدي ما أقدمه له غير نصحه بالبحث عن نزل آخر، فهذا النزل لا يناسبه بأي حال من الأحوال.

وفى يوم من الأيام جاء وافد جديد إلى النزل، وكان وحيدًا لا يعرفه أحد، وساقه قدره العسر إلى أن ينزل في غرفة تخص مجموعة من وفد الإسكندرية، وما هي إلاَّ ساعات قليلة من الليل انقضت حتى خرجنا من غرفتنا على صوت العراك، وإذا بالوافد الجديد يغادر النزل متوعدًا بالويل بعد أن سلبه أحدهم حزامه على سبيل الإهانة!

وفى عصر اليوم التالي وأمام نزل الشباب وقف عدد غفير من الشباب حاملي الجنازير والهراوى غريبة الشكل، وفى وسطهم يقف أحد شباب الإسكندرية وكان من الواضح أنه سبب هذه المشكلة وهو من انتزع الحزام. وعلى استحياء ورهبة غير مسبوقة يقف بعض شباب الإسكندرية في ترقب للوضع، فإذا بصديقي (أحمد) يتدخل محاولًا تهدئة الوضع، فأسكته أحد الشباب المدججين بالسلاح بعنف وأسلوب مهين، فاحتقن وجهه بالدماء وتغير لونه، فجذبته من ذراعه إلى داخل النزل، قائلًا له:

- إن حدثت هنا معركة فلن تكون بالهينة، وليس لنا في هذا الأمر ناقة ولا جمل، فوجودنا معهم في نزل واحد لا يعني أننا نتحمل معهم تبعات أخطائهم ونخوض معهم المعارك!

فأمسك بطوق النجاة الذي ألقيته له وجلس في مكانه. وذهبت إلى موظف الاستقبال حيث قلت له:

-هلا اتصلت بالشرطة؟!

وببروده المعتاد رد قائلًا:

- طالما لم يقتحموا النزل فلا دخل لي بالأمر!

ثم دخل علينا أحد الوافدين من الخارج حيث مسرح الأحداث قائلًا:

- لقد رحلوا وأخذوه معهم!

وهنا كانت انتفاضة (الصعلوك)! نعم إنه (الصعلوك) ذاته فلا داعي للتعجب! أخذ الصعلوك يصرخ في كل الموجودين من حوله قائلًا:

- هل ستدعوهم يأخذونه من بين أيدينا هكذا؟! هل أنتم حقًا رجال؟! سأخرج وحدي وآتي به وإن لم تخرجوا معي.

وكان ممسكًا بقطعة خشب أتى بها من بهو النزل الخلفي حيث المخلفات والأثاث المتهالك للنزل، فأسرع الجميع بإحضار المزيد من هذه الأخشاب، وانطلق من كان منذ لحظات (صعلوك)، وانطلق معه عدد من شباب (الإسكندرية) مشتعلي الحمية، وهم (أحمد) للخروج معهم متأثرًا بخطبة ذلك (الصعلوك) الرائعة، فأمسكت بذراعه ونظرت إليه قائلًا:

- أنا لم أخذلك يومًا منذ أن عرفتني، فلا تذهب معهم رجاءً.

فجلس على مضض، بينما أنا. فقد قتلني الفضول لمعرفة ماذا سيحدث، فأنا مولع بوضع الخطط والاستراتيجيات كما تعلم، وما كان لحدث مثل هذا أن يمضي هكذا دون أن أعاينه بنفسي، فوضعت يدي على كتف صديقي قائلًا:

- لا تتحرك من مكانك سأعود في الحال.

وانطلقت مسرعًا كي لا يفوتني شيء من الحدث، فإذا بالشباب الثائر منطلقين في اتجاه خصومهم بقيادة (الصعلوك) في مشهد مهيب لتخليص صديقهم المأسور، بينما انطلقت نحوهم كتيبة من صفوف الخصم في تنظيم وتشكيل رائع قد حسموا به الأمر قبل أن يبدأ من الأساس، بينما ظل البقية ملتفين حول الفتى الأسير، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على التمرس والخبرة والباع الطويل في إدارة مثل هذه الأمور لدى هؤلاء القوم.

وقبل أن يبدأ الالتحام لاذ (الصعلوك) بالفرار! وعلى إثره ارتبكت صفوف الثائرين ولاذوا هم أيضًا بالفرار! فتحول النزال إلى مطاردة، حيث توجه الثائرين إلى النزل ليحتموا به بينما سعت جحافل الخصم في طلبهم!

وكما قالوا يا (عزت) عن الحب أن منه ما قتل فإن من الفضول أيضًا ما قتل، فحرصي وشغفي على رؤية الحدث للنهاية وضعني ودون أن أشعر في قلب الحدث ولا سبيل للتراجع وتفادى الأمر، فاتخذت قراري سريعًا، حيث وضعت يدى في جيبي، وارتكزت بظهري على حائط النزل، ورفعت إحدى قدماي لترتكز هي الأخرى على الحائط بينما وقفت على الأخرى، ورسمت على وجهى ملامح اللامبالاة تلك، متجاهلًا تمامًا ذلك الفتى المنطلق نحوى شاهرًا أداته التي صممت خصيصًا للقتل وتهشيم العظام وكأنني لا أراه ولا يهمني أمره بالمرة، وبنظرة سريعة تفحصني فيها الفتى، حلت السكينة على قلبه الهائج، وعدل عن قتلي، وانطلق باحثًا عن غيري.

دخلت إلى النزل فاندفع نحوي صديقي سائلًا عن مجريات الأحداث بالخارج، فقلت له:

- لا شيء لقد هزم الشباب بقيادة (الصعلوك).
- وما مصير الفتى الأسير؟
- لا تقلق عليه فإنه الأكثر أمانًا في الخارج على ما أظن، ففي النهاية إنهم مجرد طلبة، فلن يتورطوا في إلحاق الأذى به، وستراه بعد قليل داخلًا علينا دون حزامه وربما زادوه صفعة أو اثنين لا أكثر جزاء فعلته.

وبينما يتراشق الشباب في بهو النزل بإلقاء اللوم على بعضهم البعض، إذ دخل علينا الفتى الأسير مطأطأً رأسه منزوع الحزام ويبدو على وجهه آثار صفعة أو صفعتين، حينها نظر إليَّ (أحمد) وأومأ برأسه باسمًا دون أن يعقب بكلمة.

أما (صعلوك) الأمس فقد أصبح اليوم سيد القوم وملكهم، وأصبح هو من ينعتهم بسيل من السباب القذر دون داعي مثلما كانوا يفعلون معه بالأمس، وأصبح منذ ذلك الحين يتجاهلني تمامًا ويتحاشى النظر في وجهي!

فربما كانت رؤيته لي تذكره بيوم أن كان (صعلوكًا) أربت على كتفه مواسي.

***

الفصل الرابع
من رحم الموت تولد الحياة

قال (عزت) وهو يعتدل في جلسته:

- ما أشبه معركة ذلك (الصعلوك) بتلك المعركة التي خضتها أنت وأصحابك!

فرددت عليه قائلًا:

- بل هناك فارق كبير يا (عزت)، فالوضع هنا مختلف كليًّا، فكل ما فعله (الصعلوك) هو إثارة الحمية في صدور الشباب دون توجيه وقيادة وتخطيط. وكان الخصم أكثر عددًا وعدةً ليس غافلا عنهم على الإطلاق، فهم مازالوا في مسرح الأحداث حاملين أمتعتهم ومتوقعين ردة فعل محتملة، وهنا قد غاب أهم عنصر في المعركة ألا

وهو عنصر المفاجأة، فما كان لذلك (الصعلوك) أن ينجح في تخليص الفتى بأي حال من الأحوال، بل ولم يكن لديه النية حتى لفعل ذلك، ولكنه قد نجح بالفعل في تغيير وضعه الخاص بين شباب النزل، وأنه لم يعد (صعلوكًا) بعد ذلك اليوم.

- ولكن كيف تفسر سلوك (الصعلوك) بعد ذلك؟
- هكذا يكون الحال دائمًا يا (عزت) عندما يتمكن (الصعلوك) ويصبح سيد القوم وملكهم.

وعلى أي حال فقد كانت الأمور تسير معي على نحو جيد ومثالي إلى حدٍ كبير، إلى أن رأيته متجهًا إلى الدرج. إنه ذلك الفتى غريب الأطوار الذي أحضره لنا (رضا) يومًا ما، أنت تتذكره بالتأكيد يا (عزت)، ذلك الشاب الأنيق غريب الأطوار ذو البشرة البيضاء الشاحبة والأعين الزرقاء الذابلة، والذي لا تظهر على ملامحه أي تعبيرات تشعرك بأنه حي يرزق، أنت الآن تتذكره بالتأكيد.

فذهبت حينها إلى موظف الاستقبال والذي أصبح بيننا وبينه علاقة طيبة تسمح لي بطلب خدمة بسيطة منه بشأن التحقق من نزول أحدهم

للإقامة في النزل، متى وفي أي غرفة نزل؟ ولكن الغريب أني لم أتذكر اسم ذلك الفتى!

وعلى أي حال فقد أكد لي موظف الاستقبال أنه لا يوجد نزلاء جدد منذ أربعة أيام، وذلك لأن جميع الغرف شاغرة منذ ذلك الحين، وحين أخبرت أصدقائي بشأنه وجدت لا يتذكر اسمه أي منهم أيضًا! ولكنهم أيضًا استبعدوا أن يكون الفتى مقيم معنا في النزل منذ أربعة أيام دون أن يراه أحدهم، لذا فقد رجحوا احتمالية أنه قد خيل لي رؤيته.

وذات ليلة عزم أصدقائي على النزول لشراء بعض الأغراض وشراء شيئًا لنأكله على العشاء، ولكني تخلفت عنهم لشعوري بالتعب والإرهاق، وفي أثناء جلوسي على سريري في الغرفة أخذت أطالع بعض المذكرات التي اشتريتها لتوي في ذلك اليوم، فأحسست بطعم غريب في فمي كان مالح بعض الشيء، فمددت يدي لأكتشف أنها دماء!

ذهبت إلى دورات المياه لأتخلص من هذه الدماء في فمي وأنظر في المرآة لعلي أعرف السبب وراء ظهورها المفاجئ دون سبب واضح، فرأيت أحدهم من خلال المرآة يخرج من أحد الحمامات خلفي متوجهًا

إلى الممر مباشرةً، وفى هذه المرة تحققت منه جيدًا، لقد كان هو الفتى بعينه ولا شك في ذلك، فانتابتني قشعريرة ورهبة، ولكني تمالكت نفسي وأسرعت للحاق به لمعرفة في أي غرفة نزل، ولكني لم أره! ولأن دورات المياه في منتصف الممر تمامًا، فكان من المستحيل أن يكون قد قطع الممر لنهايته دون أن أراه، ففكرت أنه من المؤكد أن يكون قد دخل إحدى الغرف. وعلى الفور ودون تردد قمت باقتحام كل الغرف بحجة البحث والسؤال عن أحد الأصدقاء، ولكني لم أجده في أي منها! فعدت إلى غرفتي واستلقيت على السرير وأخذت أفكر في لغز ذلك الفتى؟

فمنذ ظهوره وتحيطه هالة من الغموض والريبة! لابد أن وراءه خطب ما، واتجهت ببصري إلى الباب الذي هم أحدهم بفتحه، وفكرت بأنه لعلهم الأصدقاء قد عادوا أخيرًا، فكانت المفاجأة. لقد كان ذلك الفتى غريب الأطوار، بل لقد كانوا ثلاثة فتية كلهم على هيئة ذلك الفتى نفسه قد دخلوا على الغرفة! في حين قد شلت حركتي تمامًا ولم أستطع القيام أو أن أعدل من وضعيتي، حتى أني قد فقدت قدرتي على النطق، باستثناء ذلك كان باستطاعتي أن أحرك عيني وأمررها يمينًا ويسارًا. فتابعت بهما في ذعر وترقب تحركات الثلاثة فتية أو الثلاثة

كيانات بتعبير أدق، فلم يعد هناك مجال للشك في ذلك، حيث توجه ثلاثتهم نحوي ليستقر أحدهم عن شمالي، والآخر عن يميني، بينما استقر الثالث عند رأسي من الخلف، وأخذوا يرددون بعض الكلمات المألوفة بالنسبة لي، لقد كانوا يرددون:

- أنت منا ونحن منك.. كن معنا تكن لك المنعة والقوة والسلطة والمال.. وتكون سيدًا بين العالمين.

أخذوا يرددونها دون توقف حتى تساءلت في نفسي. متى يتوقفون عن هذا؟ وفي أحد أركان الغرفة، ظهر ذلك الشيخ الأشيب من جديد! كنت قد نسيت أمره أو تناسيته وظننت أنه ربما قد انتهى هذا الأمر.

هنا توقفت الثلاثة كيانات عن ترديد مقولتهم اللعينة تلك، حيث وقف الشيخ الأشيب عند قدمي قائلًا:

- نرى أنك قد نسيت أمر العهد يا (يحي)!

هنا تحرر لساني لأتمكن من الرد فقلت له:

- لم أنسى ولكنكم أنتم من نسيتم عهدكم لي بتركي لحين بلوغي سن الأربعين!

- عهدنا كان على أساس أن تفكر في الأمر لا أن تنساه برمته! لذلك سنأتيك ليلة اكتمال القمر من كل شهر لحين ذلك الميعاد كي لا تنسى أمر العهد مجددًا.

ثم تحرك الرجل الأشيب إلى الباب وفى إثره تحرك الثلاثة كيانات، وما أن خرجوا من الغرفة، حتى تمكنت من تحريك ذراعي وعادت لي السيطرة على كامل أطراف جسدي من جديد.

فقمت لأجلس على السرير، وتكاد رأسي أن تنفجر من شدة الضغط والغليان، كما كان يحدث عند ظهورهم من قبل، ولم يمضِ على ذلك الكثير حتى همَّ أحدهم بفتح الباب، فرفعت بصري نحوه في ترقب وذعر، ولكنه كان صديقي (عمرو) هذه المرة، والذي تساءل عن سبب القلق والتوتر الذي لاحظه عليَّ فور دخوله الغرفة؟! فقلت له:

- لا تشغل بالك، إنه مجرد كابوس أفزعني وحسب.

ثم دخل أصدقائي الثلاثة تتعالى أصواتهم بالضحك والمزاح، فسألهم (عمرو):

- أين ذهب (خالد)؟

فأجابه (كريم):

- لقد أمسك به ذلك المجنون (أمجد)، وهم الآن يتصارعون في آخر الممر.

قال (عمرو):

- لا أمل في عودته الآن فلننسى أمره إذًا، وهيا بنا نتناول عشاءنا.

فتبعته ضحكات الجميع بينما كنت أنا في شأن آخر. فقد عادوا من جديد. ومعهم تعود معاناتي وآلامي.

***

مضت الأيام وأنا على هذا الحال فكانوا يأتوني ليلة اكتمال القمر من كل شهر، ومع عودتهم عادت معها محاولات الكيانات الأخرى في قتلي، وكان أشدها تلك الليلة التي دخلت فيها إلى غرفتي في بيت الشباب وفور دخولي أغلق الباب بعنف فالتفت إليه في هلع فوجدته واقفًا خلفي يرمقني في غيظ، كان يشبهني بل كان نسخة مني! وقد تحولت الغرفة إلى حوائط مصمته لا نافذة فيها ولا باب، وقفت حينها مشدوهًا وقد ألجمتني المفاجأة كما أنه لم يمهلني لأتدارك الأمر حيث انطلق نحوي بسرعة غريبة ودخل في جسدي فوقعت على الأرض كمن أصابه الصرع وبدأت في الاختناق الشديد، فأحسست أن مجرى الهواء يضيق وأصبحت كما لو أني أتنفس من ثقب إبرة، وصدري كأن جبلًا أطبق عليه، فتحت فمي طلبًا للهواء وقد بدأت في فقدان الوعي، حينها سمعت حفيف الثعبان في أذني وهذه المرة رأيته، كان ثعبان أسود كبير مهيب الهيئة وقد التف حول جسدي واعتصره بقوة كادت أن تتكسر منها ضلوعي؛ ففتحت فمي أكثر من شدة الألم، فإذا بثعبان آخر صغير الحجم يدخل في فمي، حينها فقدت الوعي وأفقت بعدها لأجد

أصدقائي من حولي يحاولون إفاقتي بعد أن حملوني عن الأرض ووضعوني على الفراش.

وفي يوم كنا عائدين من إجازة النصف الأول من السنة الرابعة والأخيرة لنا في الجامعة فوضعت أغراضي وتوجهت إلى دورات المياه لأزيل عن نفسي آثار ومعاناة الطريق، وعند عودتي إلى الغرفة وجدت أصدقائي قد خلدوا للنوم متأثرين بإجهاد ومعاناة السفر، فهممت بدوري وطرحت جسدي على السرير طلبًا للراحة والنوم، وبينما كنت بين اليقظة والنوم شعرت بتثاقل في رأسي يزداد شيئًا فشيء، وتثاقلت معه أطرافي، بعدها أحسست بنفسي أطفوا وأرتقي متحررًا عن جسدي الذي تركته مطروحًا على الفراش كجثة هامدة لا حياة فيها لأسبح في فضاء الغرفة وأرى جميع أصدقائي نائمين على فرشهم وأرى جميع المحتويات في الغرفة من الأعلى، ثم تحركت سابحًا دون إرادة مني إلى الجدار لأنفذ من خلاله إلى خارج النزل متجها إلى مكان ما لا أعرفه! حيث وجدت نفسي محلقًا فوق طريق أسفلتي بسرعة مخيفة، فكان الطريق يجرى من تحتي بسرعة جنونية، ثم أظلم المكان وانعدمت الرؤية، وحين عادت وجدت نفسي محلقًا داخل

منزل لا أعرفه، كان هناك أناس كثيرين يمرحون في سعادة ونشوة وكان هناك صوت لغناء أو أناشيد، فعلى ما يبدو أنه احتفال بشيء ما، ولكن من هؤلاء فأنا لا أعرف أحدًا منهم؟! إلى أن رأيتها هناك، كانت (هيام)، كانت جالسة على أريكة ويجلس بجانبها شخص لا أعرفه!

كان ممسكًا بيدها وكانت تبدو عليها النشوة والسعادة؟! ثم أظلم المكان من جديد وكانت بعدها شهقة كادت أن تلفظ لها أنفاسي أيقظت أصدقائي من نومهم فزعين، وحين هدأ روعي قمت بالاتصال (بهيام) ولكنها لم تجب.

وفى الصباح لم أجدها أيضًا في الجامعة كعهدي بها، فحاولت الاتصال بها من جديد ولكن دون جدوى، وبعد يومين قامت هي بالاتصال بي فطلبت رؤيتها وتقابلنا في الحديقة العامة التي اعتدنا الجلوس فيها بعد الجامعة وسألتها عن سبب تأخرها في المجيء إلى الجامعة، فقالت أنها فقط تكاسلت قليلًا، ثم قالت في دلال:

- ما رأيك بهذه الدبلة في يدي؟

فنظرت إليها دون أن أعقب على كلامها منتظرًا سماع المزيد، فأردفت:

- لقد ابتاعتها أمي لي. ليعلم جميع من حولنا أني أصبحت مخطوبة حتى يتوقف طرق الخطاب لبابنا من حين لآخر، فهذا الأمر سبب لنا الكثير من الحرج.

سكتت قليلًا ثم أردفت قائلة:

- وهذه دبلة مؤقتة بالطبع إلى أن تتقدم لخطبتي وتبتاع لي واحدة.

فابتسمت لها قائلًا:

- أبلغي تحياتي لوالدتك واشكريها على صنيعها هذا، والآن سأتركك لتستريحي من عناء الطريق على أن أراكي غدًا في الجامعة.

كنت أعلم بالطبع أنها تكذب، ولكني فضلت البقاء عليها إلى حين تقرر هي إنهاء الأمر كما يحلو لها، فقد كنت في أمس الحاجة لوجودها بجانبي هذه الأيام بعدما بدأت الأمور تسوء بعودة هذه الكيانات لملاحقتي، كنت أحتاج لمن أجالسه لفترات طويلة وأتحدث إليه في أي شيء دون أن يملني أو أمل منه، ووحدها المرأة تصلح لذلك، وكانت هي المرأة الوحيدة في حياتي آنذاك.

مضت الأيام وتجددت بيننا اللقاءات والأحلام والأمنيات وكأن شيئًا لم يكن، إلى أن انتهى العام الدراسي وكان هو الأخير، فحزمنا حقائبنا وقمت بتوصيلها حتى مدخل الحي الذي تسكن فيه، ولم تكن (هيام) من القاهرة بل كانت من إحدى المحافظات، وكانت نظرتها لي في هذا اليوم مختلفة عن النظرة التي اعتدتها منها، فكانت النظرة هي نظرة الوداع..

مضى شهرين وما زال الاتصال بيننا قائم لم ينقطع، فكنت تقريبًا أتحدث إليها يوميًا، وفى ليلة وبينما كنت بين اليقظة والنوم شعرت بتثاقل في رأسي يزداد شيئًا فشيء، وأحسست بجسدي يتحرك رغمًا عني يمينًا ويسارًا، ثم حلقت في فضاء الغرفة تاركًا جسدي أراه ممددًا تحتي في ثبات تام، وفجأة أظلم المكان من حولي وانعدمت الرؤية تمامًا للحظات، وحين عادت كنت محلقًا على طريق أسفلتي يجرى من تحتي بسرعة مخيفة، ثم أظلم المكان وانعدمت الرؤية مرة أخرى، وحين عادت كنت عند مدخل الحي الذي تسكن فيه (هيام)، حيث تعالت أصوت الغناء والصخب وتزاحم الناس، إنهم يحتفلون بشيء ما! وكان هناك صوان منصوب في الساحة الواسعة من الحي

وهناك مسرح عليه فرقة غنائية تنشد أناشيد الأفراح الإسلامية في ذلك الوقت، وكان هناك طفلتان ترتديان فستانين أبيضين جميلين يرقصان على المسرح، وكان هناك أيضًا رجل يرتدي بِزَّة أنيقة يشارك الطفلتان في رقصتهما ومرحهما، كنت أعرف ذلك الرجل فقد رأيته من قبل، إنه هو بعينه.

لا أعلم حقًا يا (عزت) لماذا كان يقترن دائمًا (الكرش) والجسم الممتلئ بالعريس (الجاهز من مجاميعه) في هذه الأيام!

وهناك كان صوان آخر بجانب الصوان الأول، فلابد أنه كان يخص العروس فهذه هي سمة الأفراح الإسلامية من حيث عدم الاختلاط في حفلات العرس.

لقد أظلم المكان من جديد دون سابق إنذار، لأستيقظ من نومي على شهقة كادت أن تلفظ لها أنفاسي، وبعد عدة أيام انقطع فيها الاتصال بيني وبين (هيام) ولم أحاول فيها الاتصال بها، تلقيت اتصالًا من هاتفها الشخصي، ولكن هذه المرة لم تكن هي المتصلة بل كانت والدتها! وبنبرة صوت حزينة يبدو عليها التصنع الفاضح قالت:

- «البقاء لله يا (يحي). لقد توفت (هيام) منذ ثلاثة أيام إثر أزمة قلبية مفاجأة وقد أوصتني وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة أن أتصل بك، فعذرًا أني تأخرت في الاتصال، فأنت تعلم صعوبة الأمر.

فقلت لها:

- أعلم يا أماه كان الله في عونكم، ولا داعي للعذر فأنا قد علمت بخبر وفاتها في حينها وقد حضرت مراسم تشييع جثمانها بنفسي.

فساد صمت دام للحظات بيننا، قبل استئذاني وإنهائي للحوار. الغريب حينها أنه لم ينتابني أي شعور بالحزن والأسى على فقدها! فعلمت أن العلاقة بيني وبينها لم تكن علاقة حب على الإطلاق بل كانت علاقة احتياج، فكل منا كان في احتياج للآخر في وقت ما، والآن لم نعد كذلك.

***

مضت الأيام ولم تتوقف فيها زيارات هذه الكيانات والرجل الأشيب لي عند اكتمال القمر من كل شهر، وقد تعايشت مع هذا الواقع المفروض عليَّ فإنه لا حيلة ولا سبيل لي في تغييره، تاركًا ورائي هم ذلك الغد المجهول لحين يأتي ذلك الغد، فربما أعرف حينها ما ينبغي عليَّ فعله حياله، أو ربما لا أدرك ذلك الغد من الأساس، فقد استقر في نفسي من حينها أن لدي يومًا عليَّ أن أظفر به وأعيشه.

فاستطعت الحصول على وظيفة لا بأس بها، ومارست حياتي وكأن شيئًا لم يكن، وفي إحدى ليالي الصيف الجميلة الساحرة هممت لأفتح نافذة غرفتي طلبًا لاستنشاق ذلك الهواء الساحر الرقيق. حينها سمعت صوتًا من خلفي يقول:

- اشتقنا إليك يا (يحي) فقد طال علينا غيابك.

نظرت خلفي فإذا بها واقفة عند أحد الأركان، شاحبة البشرة، تسيل الدماء من معصمها، تنظر لي باسمة بينما تنهمر الدموع من عيناها بغزارة. ومن تحت فراشي خرجتا الطفلتان زاحفتان على بطنيهما، منتفختا الوجه بلونهما المائل للزرقة، وشفاهما الزرقاء. فجلست على

المقعد أسفل النافذة أنظر إليهن ولا أجد ما أقوله أو أفعله. فقالت حينها المرأة متسائلة:

- ما بك يا (يحي) ألم تشتاق لرؤيتنا؟!
- بلى. ولكن ما أتى بكم إلى هنا؟!
- رأينا أنك لا تريد الإقامة معنا فانتقلنا نحن لنقيم معك هنا.
- لكن الأمور هنا لا تسير على نحو جيد في الآونة الأخيرة، وقد يكون في وجودكن هنا خطورة كبيرة عليكن.
- لا تقلق سنغادر ليلة اكتمال القمر من كل شهر ثم نعود بعدها
- أنتِ إذًا تعلمين بما آلت إليه الأمور.
- أنت لم تغب عن أعيننا لحظة واحدة يا (يحي) فأنت زوجي وحبيبي، وبالمناسبة لقد حدثتك أمك بالأمس عن عروس لك، أخبرها بأن لديك زوجة وطفلتين لن يسمحن لأحد أن يشاركهن فيك ما حييت.

حينها شعرت بضيق في صدري وقبضت نفسي، فقد سأمت ومللت من كل شيء ولم أعد أحتمل كل هذا. كنت دائمًا أحدث نفسي وأشد من أزرها قائلًا:

- مالي وللغد! فأدع شأن الغد للغد، فإن لدي يومًا أظفر به وأعيشه.

أما الآن وبعد أن أصبح لي زوجة وطفلتين من عالم آخر ويقيمون معي في حجرتي، فقد أُفسد عليّ حتى ذلك اليوم!

ومن جديد لم يعد أحدًا يقرب حجرتي. فقد كان من دأب المرأة والطفلتين أن تتعالى أصواتهن بالبكاء في منتصف كل ليلة كما كان ذلك دأبهم حين كانوا في شقتهم بذلك العقار، فلم يعد هناك العقار رقم (١٠١) الذي يتجنب ويخشى الجميع الاقتراب منه، بل أصبح هناك الآن حجرتي أنا، هي من يتجنب ويخشى الجميع أن يقربوها! ترى هل هذا يحتمل يا (عزت)؟!

لقد بت حقًا أتعجل قدوم ذلك الغد لينتهي معه كل هذا العناء.

سكت (يحي) وقد احتبست الدموع في عينه فربت (عزت) على كتفه مواسيًا:

- هون على نفسك يا صديقي فأنت قوي ويمكنك تخطي كل هذا والتغلب عليه، هيا يا (يحي) يكفي اليوم عد إلى منزلك الآن لتستريح قليلًا قبل ذهابك للعمل ولا تفكر في شيء، وكما كنت تقول وتحدث به نفسك دومًا (دع شأن الغد للغد، فلديك يومًا تظفر به وتعيشه).

عاد (يحي) إلى غرفته ليسترخي على فراشه ويغمض عينيه دون أن يأبه بأمر تلك الفتاة الجالسة على الفراش بالقرب من رأسه ممسكة بيدها دميتها تداعبها، وما هي إلاَّ دقائق معدودة حتى أحس بثقل في رأسه يزداد شيئًا فشيء، فحاول التملص والخروج عن هذا الأمر قبل أن يبدأ ولكنه لم يستطع حيث زاد إحساسه بثقل رأسه وتثاقلت معه أطرافه، بعدها أحس بنفسه يطفوا ويرتقي متحررًا من جسده الذي تركه مطروحًا على الفراش كجثة هامدة لا حياة فيها ليسبح في فضاء غرفته ويرى جميع محتوياتها من الأعلى، ثم تحرك سابحًا دون إرادة منه إلى الجدار لينفذ من خلاله إلى خارج المنزل متجها إلى مكان يجهله رغمًا عنه ليرى أحداث يجهلها، ربما تكون لأناس لا يعرفهم من الأساس، وربما تنتمي تلك الأحداث إلى الماضي أو الحاضر أو حتى إلى المستقبل! هكذا تسير الأمور في كل مرة يرتقي فيها تاركًا جسده بلا حراك.

وهذه المرة استقر بجسده الأثيري في مكان يعرفه جيدًا، نعم لقد تذكر كل شيء! إنه ذلك الطريق الزراعي المؤدي لمركز الشباب الرياضي بالبلدة، كانا يأتيان إلى هنا هو وبكر في الإجازة الصيفية بعد انتهاء المرحلة الإعدادية، فكانا قد انضما لفريق كرة اليد هناك، وكان هناك طريق آخر

يؤدي إلى البوابة الرئيسية مباشرةً إلاَّ أنهما كانا يفضلان هذا الطريق رغم طوله وخلوه تقريبًا من المارة، فقد كانا يستمتعان بالسير وسط الحقول واستنشاق الهواء الطلق النظيف.

كان الوقت متأخرًا قليلًا وقد غادر جميع المزارعين الحقول عائدين لمنازلهم وقد خلا الطريق تمامًا من المارة، وكان هناك (ميكروباص) يقف بجانب الطريق وبه أربعة أشخاص يتبادلون أطراف الحديث بينهم حيث قال أحدهم:

- لقد سئمت من هذا الأمر، لا أعلم لماذا يصر الشيخ (جعفر) على هذا الصبي تحديدًا دون غيره؟!
- لأنه هو المطلوب بعينه! ولن تفتح المقبرة بأي حال من الأحوال إلاَّ بدمائه، هكذا قال.
- ولماذا الدماء، يستطيع الشيخ (جعفر) تدارك الأمر لقد فعلها من قبل!
- لكن ليست هذه المرة، فالرصد بهذه المقبرة قوي جدًا ولا سبيل أمامنا إلاَّ تلبية مطلبه.

- ولكننا نراقبه منذ ثلاثة شهور، ولم تتسني لنا الفرصة المناسبة للنيل منه بعد بسبب ذلك الصبي الذي يرافقه أينما ذهب كما لو كان ظله لا يفارقه!
- لقد تلقيت الأوامر بالتعامل معه فالشيخ (جعفر) سيسافر عائدًا إلى المغرب في نهاية هذا الشهر ولم يعد أمامنا وقت نضيعه.
- ها هما قادمان هناك.
- أخرجا أنتما واتجها إليهما لتأتوهما من الخلف وسنكون نحن جاهزان لاستقبالهما هنا إن لزم الأمر، لكن عليكما مراقبة الطريق أولًا والـتأكد من عدم وجود أحدًا يرانا.

كان هناك صبيان قادمان من بعيد وعندما اقتربا فوجئ (يحي) أن الصبيان كانا هو نفسه و(بكر)! انه يتذكر ذلك اليوم الآن! فقد كانا يتجادلان في أمر ما:

- أنا لا أعرف يا (بكر) لماذا تكره (عرفة) إلى هذا الحد؟!
- لأنه سمج يا (يحي) ومتطفل وكثير الكلام أنا حقًا لا أطيقه، وإن كنت تريد أنت مصاحبته فارجع إليه ودعني أنا وشأني.

في هذه الأثناء كانا الرجلان قد مرا بجوارهما ليأتياهما بغتة من الخلف، أحدهما أمسك بـ(يحي) واضعًا على أنفه وفمه منديلًا به مخدر فسقط (يحي) من فوره مغشيًا عليه بينما كان (بكر) منتبهًا فاستطاع أن يفلت من قبضة الرجل الآخر قبل أن يتمكن منه وهم بالفرار صارخًا إلاَّ أن رجلًا آخر قد تمكن من إسكاته بطعنة خنجر في بطنه أردته في الحال.

- هيا. أنتما احملاهما بسرعة إلى العربة وأنت حاول أن تخفي آثار الدماء.

انطلقت العربة لتغادر المكان مسرعة، حينها ساد الظلام للحظات قبل أن ينقشع على مشهد آخر في مكان ما في الصحراء، كان (يحي) ممددًا على الأرض فاقدًا للوعي ومكبل اليدين بالقرب من حفرة كبيرة وعميقة يتدلى بداخلها سلم خشبي وعلى بعد عدة أمتار منه كان (بكر) مطروحًا على الأرض جثة هامدة. وكان هناك أربعة أشخاص أحدهم كان يتكلم في هاتفه الخلوي والآخرين كانوا يتجاذبون أطراف الحديث فيما بينهم، ثم جاءت سيارة أخرى نزل منها رجلين أحدهما يرتدي جلباب بني والآخر كان يرتدي بزة رمادية، نظر الأخير إلى جثه (بكر) ولم يعقب، ثم نظر لذلك الرجل الذي كان يتكلم في الهاتف فقال الأخير:

- لم يكن أمامنا خيار!

فقال له:

- أنزلوا الصبي عند باب المقبرة وسنلحق بكم.

فنظر إلى الثلاثة رجال الآخرين قائلًا:

- لقد سمعتم ما قاله؟

فتوجه اثنان منهم ليحملا (يحي) بينما اتجه الآخر إلى الحفرة، وفي هذه الأثناء تفاجأ الجميع بهجوم من مجموعة ذئاب كما تراء لهم أو كما ظنوا للوهلة الأولى قادمة نحوهم بسرعة وإصرار غريب! هنا أخرج الرجل ذو البزة الرمادية سلاحه الشخصي وقام بإطلاق عيار ناري في اتجاه ذلك القطيع لإخافتهم وإبعادهم، فجأةً ظهر ثعبان أسود كبير مهيب الهيئة من تحت الرمال ليلتف حول جسم الرجل ويعتصره بشدة حتى سال من أنفه وفمه وعينه الدماء، فأفلت الرجلان (يحي) من يدهما فاران بجلودهما لترتطم رأسه بحجر على الأرض فتجش رأسه في الحال وتسيل منها الدماء بغزارة، أما عن البقية فلم ينجوا منهم أحد ففي غضون بضع دقائق كانت أشلائهم متناثرة في المكان.

ثم رأى (يحي) ذلك الرجل الأشيب قد ظهر من مكان ما متجها إلى الصبي، فوقف عند رأسه برهة يتفقده ثم توجه ببصره فجأة إلى (يحي)

وأخذ يرمقه بتلك الأعين شديدة السواد، فأحس وكأن تلك النظرات تخترق جسمه وتوجعه ثم أحس بوخزة وضيق في صدره ليستيقظ من نومه على شهقة كادت أن تودي بحياته، وظل يبكي فور استيقاظه بلا توقف وهو يردد:

- (بكر) قتلوك يا صديقي.. قتلوك يا (بكر)!

واسترسل في البكاء طويلا.. ثم استطرد قائلا:

- لم تكن قدري يومًا ما يا (بكر) بل كنت أنا هو قدرك يا صديقي!.. كان عليك أن تبتعد يا (بكر).. ليتك هجرتني كما هجرني الجميع.. ليتك لم تعرفني يومًا ما.. آاااااه يا (بكر) لقد أوجعتني.

واسترسل مرة أخرى في البكاء وقد أخفى وجهه بين رجليه آخذًا وضع القرفصاء لتأتي تلك المرأة وتجلس بجواره على السرير، والطفلتين جلستا بدورهما أمامه وهن ينظرن إليه نظرة إشفاق وحنين حتى شرعن ثلاثتهن في البكاء لبكائه..

***

خرج (يحي) من المنزل بحالة يرثى لها ولم يكن ينوي الذهاب إلى العمل، فذهب قاصدًا الممشى بجوار نهر النيل ليجلس هناك وأطلق لنظره العنان باتجاه مجرى النيل شاغلًا عينه باللاَّ شيء، بعد أن خلا رأسه من كل شيء. وبينما هو كذلك لفت انتباهه يافطة كبيرة مكتوب عليها: عيادة (د/ فؤاد شوقي أخصائي علم النفس والطب النفسي).

فكر مليًا ثم قام متجها إليها. دخل (يحي) غرفة دكتور (فؤاد) وجلس على أحد المقاعد أمام مكتبه، وأخذ ينظر إليه ملتزمًا الصمت وكأنه لا يعلم ماذا يقول بل لا يعلم لما هو هنا من الأساس!

قطع ذلك الصمت د/ (فؤاد) موجهًا سؤاله إلى (يحي) باسمًا:

- كيف أخدمك؟
- لا أعلم!
- إذًا عليك فقط التحدث وسأرى حينها كيف أخدمك.

شرع (يحي) في التحدث وفي بداية حديثه كان د/ (فؤاد) يجلس خلف مكتبه متسما بالهدوء والرزانة، ومع مرور الوقت أخذ يتخلى عن سمته شيئًا فشيء إلى أن استقر به المقام ليجلس على المقعد المقابل

(ليحي) أمام مكتبه ينفث دخان سيجارته في حماس وترقب! وما أن انتهي (يحي) من حديثه بعد حديث استمر لقرابة الثلاث ساعات قال د/ (فؤاد):

- اسمع يا (يحي) وهناك أمور كثيرة لا يُعرف تفسيرًا منطقيًّا لها كالأحلام في أثناء النوم مثلًا، فالجميع يحلمون وربما نتذكر بعضًا من تلك الأحلام عند الاستيقاظ وربما لا، بعضًا منها نسميها (بالرؤى)، وتكون إما أحداث تنبؤية سوف تحدث بالفعل في المستقبل، أو أحداث متعلقة بماضي ربما لا علاقة لنا به، ومنها ما لا نعرف لها معنى أو مدلول ونسميها (أضغاث أحلام)، بل إن النوم في حد ذاته ظاهرة لا يملك أحدًا لها تفسيرًا منطقيًّا إلى الآن! لا أحد يعلم لماذا ينام؟ وكيف ينام؟ ولا يستطيع حتى أن يمنع نفسه من النوم. تلك الظاهرة الغريبة التي سميت بالموتة الصغرى، حيث يحدث فيها انفصالًا جزئيًا عن الجسد الفيزيائي، وفي الغالب وعند عموم الناس يكون هذا الانفصال بلا وعي أو إدراك، ولكن في بعض الأحيان وعند بعض الأشخاص قد يحدث مع هذا الانفصال انفصالًا للوعي والإدراك، وفي هذه الحالة وعندما يكون وعي

الإنسان خلال الانفصال مفصولًا عن جسده، يجعله قادرًا على رؤية العالم حوله بنظرة مختلفة عما يراه واعيًا؛ إذ أنه يبتعد عن المادية، ويتجه للشعور والإحساس بحقيقة الشيء، ويشاهد الصورة بشكل أوضح، ويطلق على هذه الظاهرة (الإسقاط النجمي)، وربما يترتب على هذه الظاهرة أمرًا شديد الخطورة، وهو أن يبلغ مدى الوعي والإدراك للإنسان خلال الانفصال أن يخترق بإدراكه هذا تلك الحجب والحواجز الفاصلة بين عالمنا وعالم الجان، فتفتح أمامه نافذة إلى الجانب الأخر، ذلك الجانب المحجوب عن عموم البشر، والذي لا ينبغي لأحد الولوج فيه وإدراكه!.. فتكون هذه النافذة نافذة إلى الجحيم بعينه، ويكون ذلك الشخص عرضة للهجوم من قبل تلك الكيانات الخفية سواء على ذاك الكيان الأثيري المنفصل عن الجسد، أو يحدث هجوم وتلبس للجسد الفيزيائي الممدد بلا حراك. ولا أخفيك سرًا يا (يحي) أن حالتك هذه فريدة من نوعها! فأنا لم أسمع من قبل عن أحد بلغ مبلغك هذا من الأمر، فلقد بلغت ذروته بلا مبالغة، أنا أخصائي نفسي أجيد التعامل مع النفس البشرية لكن

حين يتعلق الأمر بالجانب الآخر فهذا ليس من اختصاصي ولا أستطيع مساعدتك، ولكني أعرف من يمكنه ذلك.

فقال (يحي) مستنكرًا:

- أظنك سترسلني لأحد الدجالين؟!
- لا. إنه أخصائي كبير في علم النفس أيضًا ولكنه مهتم كثيرًا بهذه الظواهر وقد أفنى عمره في دراستها ويستعين في أبحاثه بفريق عمل من المتخصصين.
- ومتي يمكنني مقابلته.
- أترك لي رقم هاتفك الخلوي وانتظر مني مكالمة أبلغك فيها بالميعاد.

عاد (يحي) إلي المنزل وفور دخوله رن هاتفه الخلوي ليجده د/ (فؤاد):

- (يحي) لقد حدثت د/ (شاكر) وقد أبدا حماسًا شديدًا في مقابلتك وحددت معه ميعاد في العاشرة من مساء اليوم، هل يناسبك هذا؟

فكر (يحي) قليلا ثم قال له:

- نعم يسعدني ذلك، وهل ستكون المقابلة في مكتبك؟
- لا. ولكنك ستأتيني في الساعة التاسعة ثم أرافقك إلى هناك.

- شكرًا يا دكتور سأكون في الميعاد.

وفي تمام الساعة التاسعة رافقه د/ (فؤاد) إلى فيلا د/ (شاكر)، كانت فيلا أنيقة بالتجمع الخامس، وعند دخولهما استقبلهم د/ (شاكر) بالترحاب الشديد ولم تطرف عينه وهو يمحص النظر في (يحي)، ثم رافقهم مباشرةً إلى غرفة أو قاعة بتوسطها منضدة كبيرة دائرية الشكل يحيط بها سبعة مقاعد يشغل أربعة منها مجموعة من الأشخاص كانوا هم طاقم العمل المتخصصين لدى د/ (شاكر)، فطلب منهما أن يأخذا مكانهما في الجلوس وأشار إلى مقعدان خاليان هناك ليجلس هو على المقعد الأخير، ثم تحدث موجهًا كلامه إلى (يحي) الذي بدا عليه علامات التعجب الاستنكار قائلًا:

- أولًا مرحبا بك يا (يحي) أنا د/ (شاكر) وهؤلاء هم فريق عملي من الأساتذة المتخصصين د/ (محمد، كمال، رأفت، أحمد) لقد حدثني د/ (فؤاد) عنك وعرفت منه كل ما أريد معرفته، وسبب استجابتي لطلبه سريعًا هو أننا بالفعل نقوم بدراسة تلك الظواهر وقد جذبت حالتك هذه انتباهنا كثيرًا ونعتقد أن هذه التجربة سوف تفيدنا كثيرًا في أبحاثنا، لذلك سندخل مباشرةً في الموضوع، ما سنقوم به الآن هو

جلسة سنحاول فيها استحضار تلك الكيانات التي تطاردك وعليها سنعرف ما يتعين علينا فعله لمساعدتك، فهل أنت مستعد لذلك؟

أومأ (يحي) برأسه بالموافقة فقام د/ (شاكر) بإطفاء الإضاءة وأشعل قبلها أحد أفراد طاقم العمل شمعة كبيرة كانت تتوسط الطاولة، ثم أمر الجميع بإغماض أعينهم والاسترخاء التام وبدأ يدندن بكلمات غير مفهومة، ثم توقف فجأة عن الكلام.

أحس (يحي) حينها بإحساس ليس بغريب عنه، إنه ذلك الألم الذي يتخلل جسمه وضلوعه في أثناء نظرة الرجل الأشيب له! ازداد الألم مع إحساسه بازدياد وهج الشمعة أمامه في حين كان الصمت يخيم على أجواء المكان، فتح (يحي) عينه في ترقب حين أحس بالريبة وبأن الجو أصبح مقبضًا للأنفاس، فرآه هناك يقف عند الزاوية ينظر إليه! ثم جال ببصره يتفقد وجوه الجالسين حوله فوجدهم وكأنهم فاقدين للوعي تمامًا تسيل الدماء من أنوفهم! ثم تحدث إليه ذلك الكيان قائلًا:

- لست في حاجة إلى هؤلاء يا (يحي) للتحدث إلينا! فأنت منا ونحن منك.
- لم أرد التحدث إليكم بل أردت التخلص من ملاحقتكم لي.

- وهل تظن أن هؤلاء يستطيعون مساعدتك في ذلك؟! أنظر إليهم يا (يحي) إنهم حتى عاجزين عن مساعدة أنفسهم.

نظر (يحي) في وجوههم للمرة الثانية فوجد الدماء تزداد غزارة، فقال له:

- لا تؤذى أحدًا هنا فلا ذنب لهم.
- هذا يتوقف عليك! يمكنك أن توقف هذا بمغادرتك المكان في الحال.

نهض (يحي) من فوره وبخطوات ثقيلة جاهد ليغادر القاعة ثم الفيلا مبتعدًا عن المكان، بعدها بدأ الجميع يستردون وعيهم وما أن لاحظوا تلك الدماء السائلة من أنوفهم على أفواههم وذقونهم توجه أحدهم مسرعا لإشعال الأنوار ليصابوا بعدها بحالة من الذهول والهلع مما كانوا عليه، إلى أن لاحظ أحدهم أن د/ (شاكر) لم يسترد وعيه بعد فالتفوا جميعا حوله محاولين إفاقته إلى أن أوقفهم د/ (رأفت) بقوله:

- لقد مات!

***

لم يعد (يحي) إلى منزلة بل توجه إلى ذلك المقهى ليجلس على تلك الطاولة هناك، هذه المرة لم يجد (عزت) في انتظاره كالعادة فجلس لينتظره وقد تجمعت عليه هموم وأحزان الدنيا كلها، وبعد عدة دقائق من جلوسه جاءه (سمير) ليضع أمامه كوبين من السحلب الدافئ ثم مضى دون أن يتفوه بكلمة واحدة! وبعد عدة ساعات كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل استدعى (يحي) (سمير) سائلًا:

- هل رأيت (عزت)؟
- من (عزت)؟!

فقال (يحي) في حنق:

- أرأيت ذلك الرجل الذي يجلس معي كل يوم هنا، هذا هو (عزت)! هل رأيته؟

سكت (سمير) برهة يفكر ثم رد قائلًا:

- لا. لم أره اليوم.
- إذًا ولمن أحضرت كوب السحلب الثاني هذا؟!
- أحضرته لأنه هو طلبك المعتاد!

نظر إليه (يحي) في غيظ قائلًا:

- خذ كوب السحلب هذا فأنا لن أدفع غير ثمن الكوب الذي أمامي.

أخذ (سمير) كوب السحلب دون أن يعقب على كلامه واتجه لداخل المقهى حيث مر في طريقه على الحاج (بلال) صاحب المقهى الذي تحدث إليه قليلًا قبل أن ينهض (يحي) مغادرًا المكان عائدًا إلى منزله حيث كان يعتريه شعور باليأس والإحباط، وعندما دخل غرفته لاحظ بأن الأجواء هادئة على غير العادة فلم يرى أيًّا من المرأة وطفلتيها!

لم يكن حينها بحال يسمح له بالتدقيق والتفكير في أي شيء فألقى بجسده على السرير وغط في نوم عميق فور أن أغمض عينه، ولم يلبث إلاَّ القليل حين أيقظوه من نومه، كانوا سبعة أشخاص كلهم على هيئة ذلك الرجل الأشيب، فعلم أنه قد حان الوقت وقد أتى أخيرًا ذلك الغد.

فرافقوه للولوج عبر نافذة فتحت عند أحد الأركان من الغرفة فوجد نفسه يقف في ميدان كبير دائري الشكل، أرضيته مصنوعة من الرخام الغريب والذي لم يرى مثله من قبل، تحيط به مدرجات رخامية مرصوص عليها تماثيل ذهبية متماثلة في الشكل والحجم، وكان أمامه

منضدة رخامية عليها قدر من ذهب مملوء بالدماء وبجانبه ريشة ورقعة من الجلد ومن بعيد هناك عدد كبير من الكيانات في هيئة بشرية متماثلة الشكل أيضًا، مصطفين في صفوف متوازية، يتقدم صفوفهم رجل أشيب مهيب الهيئة تحدث إليه قائلًا:

- أكتب ما سأمليه عليك في الصحيفة التي أمامك يا (يحي).

فأمسك بالريشة وغمسها في الدماء، ثم أردف ذلك الكيان قائلًا:

- أكتب باسم (عيزا زيل) رب العرش العظيم.... إلخ

وأخذ يملي على بقية العهد والقسم بينما كان (يحي) يكتب في رقعة الجلد أمامه، وما أن انتهى من إملاء القسم عليه حتى قال:

- والآن أمسك بالصحيفة واقرأ علينا ما كتبته فيها بيدك وبصوت عالٍ مسموع للجميع.

فأمسك (يحي) بالصحيفة وشرع في قراءة ما بها بصوت جهور قائلًا:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥]

وهنا عمت الفوضى والغضب أرجاء المكان، وبدأت التماثيل تتساقط، وانطلقت نحوه مئات الكلاب الغاضبة المكشرة عن أنيابها.

فأغمض عينه واسترسل في القراءة وهو مبتسم وكأنه راضٍ عن هذه النهاية، فلم تكن حياته بتلك الحياة التي يبكي عليها على أي حال، أحس بأن شيئا ما قد صدمه بقوة رهيبة انتفض لها جسده ليستيقظ على شهقة كادت أن تودي بحياته، فقام عن فراشه فزعًا وأخذ يجول ببصره في أرجاء الغرفة في هلع وذعر وكأنه لا يعرف أين هو!.. فلم يكن رجوعه هذه المرة كتلك المرات السابقة، فقد رجع هذه المرة بينما علق إدراكه ووعيه في مكان ما هناك!..

فاندفع إلى الباب وخرج مسرعًا من المنزل يملأ قلبه الخوف والرهبة فأخذ يهيم في الطرقات بلا وعي ولا إدراك، لا يعلم من أي شيء يفر.. ولا يعلم إلى أي مكان سيذهب.. ولا يعلم حتى من يكون!..

وبعد مرور عدة أيام ذهب الحاج (بلال) صاحب المقهى إلى منزل (يحي) ليسأل عنه، فخرج إليه الحاج (كامل) فقال له سائلًا:

- كيف حالك يا حاج (كامل)؟ جئت أستخبر عن أحوال (يحي)، فلم أره منذ عدة أيام مضت! هل هو بخير؟
- ولم أره أنا أيضًا. فقد اختفى (يحي) منذ خمسة أيام ولا نعرف أين هو! متى كانت آخر مرة رأيته فيها؟
- كانت أيضا منذ خمسة أيام تقريبًا، وقد كان قبلها يأتي إلى المقهى كل ليلة، يجلس على إحدى الطاولات هناك ويطلب مشروبين ويظل يتحدث بالساعات وكأنه يتحدث إلى شخص ما أمامه! وفي آخر ليلة رأيته فيها كان يظهر على وجهه علامات الحزن والأسى فظل جالسًا ملتزمًا الصمت لساعتين تقريبًا ثم سأل عن شخص يدعى (عزت) قبل أن يرحل.
- إن رأيته يا حاج (بلال) في أي وقت فاعلمني في الحال رجاءً.

- أكيد سأفعل يا حاج (كامل) رده الله إليك سالمًا وطمأنك عليه.

عاد (كامل) ليدخل المنزل فوجد زوجته (فريدة) وقد انهالت الدموع من عينها وهي تقف خلف باب المنزل تستمع إلى حديثهما، فنظر إليها ولم يجد ما يقوله فتوجه إلى غرفته ليغلق الباب على نفسه.

مرت الأيام والسنين وفي إحدى القرى التابعة لمحافظة الجيزة كان هناك رجل في العقد الخامس من عمره ملقى على الأرض رث الثياب طليق اللحية حاله كحال أي مجذوب هائمًا في الطرقات، كان يعاني من حمة شديدة على ما يبدو، وقد تجمع حوله مجموعة من الناس يتبادلون أطراف الحديث فيما بينهم، بينما كان أحدهم يتفحصه بعناية ويبدو من هيئته أنه طبيب، وفور انتهائه قام ليقول للحاج (شكري) في أسى:

- إنه يحتضر!

ثم استطرد قائلًا:

- هل يعرفه أحد هنا؟

فأجابه الحاج (شكري) قائلًا:

- لا. لقد أتى إلى هنا منذ ثلاثة أعوام تقريبًا، ومنذ ذلك الحين كان لا يتحدث لأحد كما لو كان لا يعرف الكلام! ولا تكف عينه عن إذراف الدمع وكأنها تستمد مائها من بحر لا ينضب! دائمًا ينظر أمامه جاحظ العينين يكاد لا يرمش له جفن وكأنه يرى ويراقب أشياء أو أحداث لا يراها غيره! وكلما حاولت التحدث إليه أجده شارد البصر ولا يلتفت إليَّ وكأنه لا يسمعني ولا يراني ولا يشعر بوجودي من الأساس! فقط كنت أضع في فمه بعض اللقيمات من حين لآخر.

فقال أحد الحضور سائلًا:

- هل اتصل أحدكم بالإسعاف؟

رد (شكري) قائلا:

- حاولت أكثر من مرة ولكنهم لم يأتوا، فعلى ما يبدو أنهم لا يأبهون لمثله!

وسكت قليلا في حين كان ينظر إليه ثم استطرد قائلًا:

- ولكني لن أدعه هكذا، إنه إنسان وليس كلبًا كي أتركه يلفظ أنفاسه هنا على الرصيف، ساعدوني في حمله إلى منزلي فو الله لن أتركه وليكن ما يكن!

كانت الساعة العاشرة مساءً حين دخل (كامل) إلى حجرته متكأ على عصا وقد انحني ظهره وتدهورت صحته حزنًا على فقده ابنه ولتقدمه في العمر أيضًا، أخذ في وضع ملابسه حتى أحس بقشعريرة تسري في جسده، فالتفت خلفه حين أحس بأن هناك من ينظر إليه ليجدها تقف خلفه عند الزاوية بالقرب من الباب فتحدث إليها سائلًا:

- ماذا تريدين؟

- إنه يحتضر.

اهتز كيان (كامل) من وقع قولها وكاد أن يفقد توازنه لولا تلك العصا المرتكز عليها وبصوت مرتعش مكتوم قال لها:

- أين أجده؟ أخبريني أرجوك.

رن جرس الهاتف الخلوي الخاص (بحمزة) فأجاب على الفور قائلًا:

- أهلًا أبي كيف حالك؟

- احضر السيارة وأتيني في الحال يا (حمزة) ستجدني في انتظارك أمام المنزل.
- هل هناك خطب ما يا أبي؟
- أسرع يا (حمزة) رجاءً.

أسرع (حمزة) في تبديل ملابسه وقد بدا عليه القلق، فسألته زوجته:

- ماذا هناك يا (حمزة)؟!
- لا أعلم؟ أبي يريدني في الحال! سأذهب لأرى ما الأمر.

وفي منزل الحاج (شكري) كان متواجد في الحجرة رجلين قد أصرا على مرافقته للوقوف بجانبه في هذه اللحظات الفارقة، فقال أحدهم مخاطبًا (شكري):

- ماذا تفعل يا حاج (شكري)؟ إنه مجذوب ولن يفهم ما تمليه عليه! ثم إنه مرفوع عنه القلم من الأساس!
- لا شأن لي كونه مجذوبًا أو لا يعي ما أقوله، فطالما لم يلفظ أنفاسه بعد فمن واجبي تلقينه.

توقف (شكري) عن الحديث حين لاحظ خروج (يحي) عن شروده موجهًا بصره إلى باب الحجرة وكأنه ينظر لشيء ما هناك، فتوجهت

أنظار الجميع إلى حيث ينظر، حينها سمعوا صوت طرقات على الباب، فذهب (شكري) ليرى ما الأمر، فإذا بها ابنته، وقد أخبرته بشيء ما، فخرج وغاب لدقائق ثم عاد ومعه رجلان اندفع أحدهم إلى (يحي) فور دخوله دون أن يعير الحاضرين اهتمامًا لينكب عليه ممسكًا بيده والدموع تنسكب من عينيه لتغرق وجهه، وأخذ يحدثه قائلًا:

- لا تخف يا بني فأنا هنا بجوارك.

ثم سكت برهة تمالك فيها نفسه قبل أن يقول:

- قل يا (يحي) ورائي. "أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمدًا رسول الله".

حينها خر (حمزة) على ركبتيه من وقع ما سمعه ويراه فلم يكن (كامل) في حال يسمح له بالتحدث إليه وإخباره بأي شيء في طريقهما، فأخذ يقول في حالة من الذهول بعد أن أمسك بيد أخيه الأخرى وهو ينظر إليه ولأبيه:

- ماذا تقول يا أبي؟!.. قم يا (يحي).. انهض يا أخي لتعود معنا إلى المنزل فأمنا هناك تشتاق لرؤياك.

فاستطرد كامل وقد بدا أكثر صرامة وهو يقول:

- ردد يا بني. قل يا (يحي) "أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمدًا رسول الله".

ارتسمت على وجه (يحي) ابتسامة خفيفة قبل أن ينطق بالشهادة بحروف متثاقلة ومتقطعة لفظ معها أنفاسه الأخيرة.

بعدها وجد نفسه يسبح في ظلام سرمدي موحش، يحيط به السكون والصمت الرهيب من كل مكان، فأخذ يتساءل في نفسه:

- أهذا هو كل شيء؟! أهذا هو الموت! ظلام وسكون!

ثم ظهر أمامه من بعيد ضوء خافت ظل يقترب ويزداد حجمه وضياءه شيئًا فشيء، فتساءل في نفسه مرة أخرى:

- ترى ما وراء هذا الضوء؟ هل هي رحمة؟ أم يأتي ومن قبله العذاب؟

أخذت سرعة الضوء تتزايد ويقترب منه أكثر فأكثر فيتزايد حجمه وضياءه كلما اقترب إلى أن ابتلعه بداخله، فأحس بوخزة وألم رهيب في صدره فأطلق صرخة مدوية.

- انتهينا يا (فريدة) انتهينا يا بنيتي، لفيه بسرعة يا (أم محمد).
- حاضر يا حاجة (سارة) سأقطع له الخلاص أولًا.

ثم نظرت إلى ذلك الطفل الذي اقتحم الغرفة فجأة حين سمع صراخ المولود، لتقول له:

- (حمزة)! لم دخلت إلى هنا الآن؟

- هل هو ولد أم بنت؟

فقالت أم محمد الداية وهي تلفه داخل لفافته:

- إنها بنت. هيا اخرج من هنا الآن.

خرج (حمزة) مطأطأً رأسه يملأه الحزن والأسى، وفي هذه الأثناء دخل أبيه من الخارج ليراه على هذا الحال، فسأله متعجبًا:

- ما بك يا (حمزة)؟ لما أنت حزين بهذا الشكل؟!

- لقد أنجبت أمي بنت!

- وماذا في ذلك يا بني؟!

- كنت أريده ولدًا لألعب معه وأصاحبه.

فضحك (كامل) من قوله وقبل جبينه ثم طرق باب الحجرة واستأذن للدخول، فقالت له حماته (سارة) حين هم بحمل المولود بعد اطمئنانه على زوجته:

- سمي الله يا (كامل) قبل أن تحمله.

- ما هذا؟ إنه ولد! فلم قال (حمزة) بالخارج أنه بنت؟!

فردت (أم محمد) الداية قائلة:

- أنا أخبرته بذلك لأني أعلم أنه سيقول فور خروجه من الغرفة.
- وماذا في ذلك يا (أم محمد) فيجب أن تعلم الناس على أي حال.
- في وقت لاحق وليس الآن، فالآن هو وأمه عرضة للحسد.

فقالت (سارة) سائلة:

- والآن ماذا تسميه يا (كامل)؟

وقبل أن ينطق قالت (فريدة):

- (يحي). اسمه (يحي)

نظر إليها كامل متعجبا، فلم يكن هذا هو الاسم الذي اتفقا عليه من قبل، فأردفت قائلة:

- لقد سمعت هذا الاسم يتردد في أذني عند نزوله.

فابتسم (كامل) وقال:

- اسم جميل (يحي)، سنسميه (يحي).

***

وبعد مرور الأيام والسنين، استيقظ (يحي) على صوت أمه وهي تداعب أذنه وأنفه قائلة:

- قم يا (يحي). قم أيها الكسول ستتأخر على المدرسة.
- دعيني يا أمي لأنام لا أريد الذهاب اليوم.
- قم يا ولد فلا وقت لدينا لهذا. هيا أسرع فقد تأخرت على المدرسة وصديقك (بكر) في انتظارك بالخارج.
- ألا يمل (بكر) هذا أبدًا! أخبريه أن يذهب يا أمي رجاءً.
- قلت لك هيا أسرع وارتدي ملابسك وإلاَّ أحضرت لك أبيك.

وفي الفصل كان (يحي) يجلس بجوار (بكر) في دكة تقع في منتصف الفصل تمامًا حيث دخل عليهم الأستاذ (طايع) مدرس أول اللغة العربية، جهبذ من جهابذة اللغة، وعلم من أعلام الأدب، دخل متأبطًا عصاه الرشيقة، ويحمل في يده حقيبة بنية مصنوعة من الجلد، فقال:

- قيام.... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته... جلوس.

ثم وضع حقيبته على المنضدة، وأخرج منها كشكول التحضير، ثم أمسك بالطبشورة واتجه إلى السبورة، تأكد أن البسملة في منتصفها، والتاريخ الهجري على يمينها والميلادي على الجانب الآخر منها، ثم كتب جملة طويلة وضع تحت إحدى كلماتها خط ليميزها، ثم رجع خطوتين للخلف، وأشار بعصاه الرشيقة على الكلمة المميزة قائلًا:

- أعرب ما تحته خط.

فرفع (يحي) يده وكذلك فعل (بكر) بحماس مبالغ فيه حتى أنه كاد أن يفقع عين الأستاذ (طايع) بيده حين اقترب منه، وكاد بذلك أن يفسد الأمر برمته، لولا أن شغف الأستاذ (طايع) باصطياد أكبر عدد من الفرائس قد أعماه عن اكتشاف تلك الحيلة التي أصبحت واضحة للأعمى.

وسر (بكر) كثيرًا أنه قد أفلت من بطش الأستاذ (طايع) وذلك لأنه تقريبًا كان يعاقب في كل حصة ويقضيها واقفًا عند الحائط بجانب الأخ (عبد الرحيم) وبقية النخبة المتميزة من الأصدقاء لآخر الحصة.

وبعد انتهاء المدرسة وفى طريق عودتهما إلى المنزل رأى (يحي) جروًا رضيعًا بجانب جدار أحد المنازل، كان يأن من الجوع، لا يعلم حينها ما

الذي جذبه إليه! فهو لم يكن مولع باقتناء الحيوانات عامةً وخصوصًا تلك الكلاب، ولكنه وجد نفسه يميل عليه ويتفحصه، فقال (بكر) متسائلًا:

- يحي.. ماذا تفعل؟! أتركه وهيا نمضي في طريقنا.
- سوف آخذه معي إلى المنزل لأتولى رعايته.. فأظنه سيكون كلبًا جيدًا.
- بل أظنه سيكون كلبًا ملعونًا يا صديقي.
- ما دفعك لقول ذلك؟!
- مجرد استنتاج، فما ظنك بكلب يربيه شيطان مثلك يا (يحي)؟ ماذا عساه أن يصبح غير كلبًا ملعونًا؟

هنا انتاب (يحي) شعور غريب يتكرر دائمًا معه: شعور بأنه كان هنا من قبل! شعور بأنه قد سمع هذا من قبل! شعور بأن كل ما يراه قد حدث فعلًا من قبل!

فاستطرد قائلًا بعد أن أفاق من شروده:

- هههه.. ليكن ما يكونه هذا الكلب فأنا سوف أقتنيه على أي حال.
- لا أظن أن أباك سيوافق على اقتنائك لهذا الجرو.

- بل أظنه سيوافق يا (بكر).
- ليكن رهانًا بيننا إذًا يا (يحي) وسأصحبك إلى منزلك لأرى إن كنت سأكسب الرهان هذه المرة، فأنا أتطوق لرؤية هذا منذ زمن، وأظن أني سأنالها أخيرًا.

***

الخاتمة

في مرات كثيرة، وعند تعرض المرء لمواقف معينة، يخيل إليه أنها قديمة وأنه قد تعرض لها من قبل، بنفس المكان والأشخاص والكلمات، وهو ما يعرف بظاهرة الـ (ديجا فو).

وهناك تفسير غريب لتلك الظاهرة وهو أن الإنسان –نظريا– يعيش حياته كاملة بكل تفاصيلها قبل أن يبدأها! ففي مراحل تكوينه الجنيني الأولى، ومع اكتسابه الحياة (نفخ الروح) فإنه يتم معها حقن سجل حياته التفصيلية بالكامل منذ اللحظة الأولى لولادته وحتى مماته! وأنه لا يوجد أي فارق بين الحياة المجازية التي يمر بها الجنين والحقيقية التي يمارسها بعد ولادته، حتى أنه لا أحد يستطيع الجزم في أي وقت إن كان حيًا حقيقة أم أنه مازال جنينا لم يولد بعد! ما يعني أنك –وأنت تقرأ هذا الكلام الآن– قد تكون ما زلت جنينًا في بطن أمك تمارس الحياة المجازية، وأنك سوف تقرأ هذا الكلام مرة أخرى بعد ولادتك عندما يحين وقته.